محمد الصالح الصديق

# الرافضون عبر التاريخ

## الجزء الثاني

ديوان المطبوعات الجامعية

محمد الصالح الصديق

# الرافضون عبر التاريخ

## الجزء الثاني

ديوان المطبوعات الجامعية
الساحة المركزية - بن عكنون - الجزائر

رقم النشر: 4.16.4729
رقم ر.د.م.ك (I.S.B.N): 978.9961.0.0823.2
رقم الإيداع القانوني: 714- 2005

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمــة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير من نطق بالصواب، وأفضل من أوتي الحكمة وفصل الخطاب، وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار.

أما بعد فهذا ـ قارئي الكريم ـ هو الجزء الثاني من كتاب «الرافضون عبر التاريخ» وليس لي من قول أذكره في مقدمة هذا الجزء إلا هذا الخبر الذي نشرته إحدى الصحف الأجنبية السائرة ... وقرأته وأردت أن يقرأه كل من يقع في يده هذا الكتاب :

«في عام 1941 عندما كانت الحرب العالمية الثانية يتسعر أوارها، حاصر الحلفاء بسفنهم وغواصاتهم البارجة الألمانية (جراف) وأصابوها بقذائفهم. ولما أدرك قائدها أنها غارقة لا محالة، أنزل كل بحارتها وضباطها، ثم صعد إلى سطحها ورفع قبعته تحية للدنيا وغاص بعدها إلى الأبد).

فاستثار هذا القائد إعجاب العالم، وشغل العقول المفكرة، والأقلام السيالة، ببطولته واستهانته بالحياة، وراح الناس يتندرون بموقفه في المحافل والنوادي.

فهل يسمع الأوروبيون عن بطولاتنا الكثيرة التي تفتك الإعجاب، وتستثير النخوة والاعتزاز؟ والتي من بعضها ما يحتويه هذا الكتاب؟

(قد رافقت ـ قارئي الكريم ـ في الجزء الأول من هذا الكتاب عمالقة وأماجد في نماذج من البطولات الرائعة، والمواقف الخالدة، ورأيت ما يبهر العقول، ويفجر الحمية، ويقوي العزيمة، ويرفع الرأس افتخارا بأمجادنا، واعتدادًا بمعطيات تاريخنا، مما يجعلك تواصل الرحلة في هذا الجزء بقلب متفتح، وصدر منشرح، ونفس متطلعة، وأمل كبير أن يكون لك من هؤلاء ما يبعث فيك طاقة تحقق بها ما ترنو إليه في أفق مستقبلك.

وإننا لنسأل الله أن يجعلنا خير خلف لخير سلف، ويثيبنا على هذا العمل، إنه كريم مجيب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

محمد الصالح الصديق

القبة ـ الجزائر 20 رجب 1403 هـ
الموافق لـ : 03 ماي 1983م

«.. فضحى بولده في سبيل الأمانة ..
وضرب بذلك أروع الأمثال في الوفاء».

الوفاء والغدر طرفان متناقضان لسلوك الإنسان..

يرفعه الوفاء إلى الأعلى فيكون موضع الثقة والأمانة والاحترام بين مختلف الناس، ويخفضه الغدر إلى الأسفل فيكون موضع الريبة والازدراء.. والاحتقار...

وإنما كان الوفاء بهذه المثابة وهذا الاعتبار، لأنه الصورة الحية للضمير الإنساني اليقظ، والتفسير العملي لكرم الأصل، وطهارة القلب، وصفاء النية، والثقة بالنفس..

فالوفي شجاع أمين، يحمل نفسا عالية تعلو عن الكذب والغش والخداع، وتترفع عن الأهواء والأغراض الشخصية..

وكان الغدر خلقا قبيحا ذميما، لأنه الصورة الصادقة للضمير المهزوز، والتفسير العملي للنفس المريضة، والنية الفاسدة، والشخصية الضعيفة المتذبذبة...

وكان ذوو الفطر السليمة والنفوس الصحيحة، وما يزالون، يرون الوفاء فريضة محكمة، وواجبا مقدسا لا يمكن التهاون فيه مهما كانت الظروف، وقد يؤدي الوفاء ببعضهم إلى التضحية بنفسه أو بأعز مخلوق لديه أو يعرضه للإهانه والإذاية، ولكن ذلك كله لا يحول بينه وبين الوفاء...

ولا يزال التاريخ يردد على المسامع مواقف أبطال رفضوا أن ينكثوا العهد، وينقضوا الميثاق، بالرغم مما تعرضوا له من امتحانات رهيبة، وإذايات فظيعة، لولاها ما خفق بهم قلب، ولا لهج بذكرهم لسان، ولا تحرك للتنويه بهم قلم...

فمن منا لم تقرع سمعه قصة ذلك الرجل الذي ذبح ولده أمام عينيه عندما رفض في إصرار أن يسلم لملك كندة وديعة تركها عنده امرؤ القيس، وأبت عليه نفسه أن يتحيف بميثاق، التزم به، ويخون عهدا قطعه على نفسه، ويبطل وفاء آمن بأنه عنوان همته وشرفه؟

فقد كان الصراع عنيفا للغاية بين الرجل ونفسه عندما خيره الملك بين أن يسلم له الوديعة أو أن يذبح ولده، فالتضحية صعبة عسيرة على الإنسان، لا سيما إذا كانت التضحية بعزيز عليه كفلذة الكبد، ولكن الرجل، بعد محاورة مع نفسه انتصر عليها انتصارا قد لا يسيغه كل إنسان، ولا يقبله كل ذوق، فضحى بولده في سبيل الأمانة، وضرب بذلك أروع الأمثال في الوفاء وصار بذلك مثار الإعجاب والتقدير عبر التاريخ...

ترى من هو هذا الرجل الذي تبوأ مكانة الصدارة في تاريخ الأوفياء؟

ومن هو هذا الذي رفض أن يتسفل إلى حضيض الخيانة، ونقض العهد، وقال لنفسه عند المساومة والمراودة (لا) في قوة وإصرار... فضحى بأعز مخلوق لديه؟

إنه الشاعر الحجازي القديم السموأل الذي ضرب به المثل وقيل «أوفى من السموأل» والذي صارت قصته أنشودة الشعراء، ودرسا عميقا في الوفاء وحفظ العهد ورعاية الذمم.. ولا غرو أن يكون السموأل نفسه أول من يسجلها في شعره إذ يقول:

وفيــــتُ بأذْرع الكنـــدي، إنّي
إذا ما القومُ قد غَدَرُوا وَفَيْــــتُ
وأَوصَـــى عاديـــا يوما بــــأن لا
تهـــدِّم يا سمـــوألُ ما بنيْـــتُ

ويهتز الأعشى للموقف الرهيب، والامتحان الشديد فيقول :

**كُنْ كَالسَّمَوْأَل إذ طـاف الهُمَـامُ بـه**

**في جَحْفَل كســواد الليـل جَــرَّارِ،**

**الأبلق الفـــرد من تَيْمَـــاءَ منزِلُــــهُ**

**حِصْنٌ حَصِينٌ وجـار غيـر غَــدَّارِ...**

**قد سامَـــهُ خُطَّتَيْ خسْفٍ فقـال لـــه**

**: قـــل ما بدالك إني سامـــعٌ حــــار**

**فقال : ثكْــلٌ وغـــدْرٌ أنــتَ بينهمـا**

**فاختَــرْ وما فيهمــا حَــظٌّ لمختـــار**

**فحـــارَ غَيْـــرَ طويل ثم قال لــــــه :**

**اقتُــلْ أسيـــرَكَ إنِّي مانِـــعٌ جَــــارِي**

وتتزاحم على الذاكرة مواقف لرجال الوفاء، الرافضين للغدر والنكث والخيانة عبر التاريخ، وتتراءى لنا صورهم الوضيئة المشرقة فننجذب نحوها حبا وتقديرا، وإعجابا وإكبارا، فهذه امرأة حسناء لو وزع جمالها على جماعة من النساء لكانت كل واحدة منهن فاتنة، جلست عند قبر تبكي، فمر بها سليمان بن عبد الملك، ومعه يزيد بن المهلب، فأخذ ينظر إليها، فقال لها يزيد وقد رأى إعجاب الخليفة بها :

يا أمة الله، هل لك في أمير المؤمنين؟ فنظرت إليهما، ثم نظرت إلى القبر وقالت :

فإن تسْـألاَني عن هــوايَ فإنــــه

بحَــومْاء هــذا القبــر يا فَتَيَـــان

وإني لا ستحييــه والتــرب بيننــا

كما كنــتُ أستحييــه وهو يراني

إنها رفضت حياة الجاه والعز في كنف الخليفة وفاء لزوجها، وبرا به بعد موته، وإكراما للعلاقة الزوجية التي لا ترضخ في نظرها للموت والفناء..

وأمر الحجاج بإعدام جماعة من الأسرى فأعدموا جميعا ما عدا واحدا حل موعد صلاة المغرب قبل تنفيذ الحكم فيه، فأرجأ الحجاج إعدامه، إلى صباح اليوم التالي، وقال لقتيبة بن مسلم : اجعله عندك الليلة وأحضره غدا.

وفيما هما منصرفان إلى دار قتيبة قال له الأسير : هل لك في خير؟ قال ... وما ذاك؟ قال : عندي ودائع وأموال أحب أن أردها عى أن أعود إليك غدا؟ فرفض قتيبة أول الأمر، خشية أن يكون الرجل مخادعا، ولكن هذا ما لبث أن أقنعه بإخلاء سبيله...

وقضى قتيبة ليلته ساهرا يفكر في مصيره إذا لم يعد الرجل، وندم على أن تركه يذهب، ولكن ما إن أشرقت الشمس حتى عاد الرجل كما وعده، فأعجب قتيبة بوفائه ثم انطلق حتى أجلسه على باب الحجاج ودخل، فلما رأى الحجاج قتيبة سأله: أين أسيرك؟ قال : إنه بالباب، ثم قص عليه قصته، فلم يكن أقل منه عجبا وإعجابا، وأمر بإطلاق سراح الأسير جزاء ما أظهر من أمانة ووفاء.. وقال له الحجاج : أتحب أن أهبه لك؟ قال : نعم، فقال الحجاج : هو لك.

وخرج قتيبة فبشر الأسير بالعفو عنه، وشد ما كان عجبه إذ رفع الرجل بصره نحو السماء وقال :

لك الحمد يا رب، ثم مضى منصرفا دون أن يوجه إليه هو أي شكر مع سعيه لدى الحجاج في سبيل هذا العفو :

ولقيه بعد أيام، فسأله في ذلك، فقال الرجل : لا تؤاخذني يا سيدي، فما كنت لأجحد صنيعك، ولكني كرهت أن أشرك مع الله أحدا في حمده على أن منَّ عليَّ بالحياة...

على هذا الدرب الصاعد الذي لا يسلكه إلا مؤمنون، أقوياء العقيدة، وكبار النفوس، تلاحقت مواكب الأوفياء، ومشت قوافل الرافضين للغدر والخيانة والخداع، ويتابع الزحف سيره يصدع بالحق، ويفي بالعهد، ويلقى في قلوب الضعاف الرعاديد الرعب والفزع...

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته

والبيت يعرفه والحل والحرم

وليس قولك: من هذا بضائره

العرب تعرف من أنكرت والعجم

من أساطين الشعر في العصر الأموي، اشتهر بقوة الذاكر، وعمق الإدراك، وسعة الافق في اللغة، وكان يحفظ من شعر العرب وأخبارها وأيامها الشيء الكثير، وكان كثير الزهو بنفسه والفخر بآبائه في شعره، وكان كثير التعظيم لقبر أبيه، فما جاءه احد واستجار به إلا نهض معه، وساعده على بلوغ غرضه، وفي كتب الأدب والتاريخ حكايات وأقاصيص تروي عن ذلك.

فمن لك ماحكاه المبرد في كتابه (الكامل) ان الحجاج بن يوسف الثقفي لما ولى تميم بن زيد القيني بلاد السند دخل البصرة فجعل يخرج من أهلها من شاء، فجاءت عجوز إلى شاعرنا فقالت:

اني استجرت بقبر أبيك. وأتت بحصيات... فقال: ماشأنك؟ قالت: ان تميم بن زيد خرج بابن لي معه، ولا قرة لعيني ولا كاسب عليّ غيره فقال لها، وما اسم ابنك؟ فقالت: خنيس، فكتب إلى تميم من ذهب:

تميمَ بن زيد لا تكونَنَّ حاجتي
بظهر فلا يعيا عليَّ جوابُها
وهب لي خُنَيْسا واحتسب فيه منة
لعبرة أمٍّ ما يسوغ شرابها
اتتنى فعاذت يا تميم بغالب
وبالحفرة السافى عليها ترابها
وقد علم الأقوام أنك ماجد
وليث اذا ما الحرب شب شِهابها

وتنسب اليه مكرمة يرجى له بها الجنة، وتعد موقفا عظيما لا يقفه الا المخلص المنصف، والرافض الشهم، والكريم الهمام، وهي انه لما حج هشام بن عبد الملك في ايام ابيه، طاف بالبيت وجهد ان يصل الى الحجر الاسود ليستلمه فلم يقدر لكثرة الزحام فنصب له كرسي وجلس عليه ينظر إلى الناس ومعه جماعة من اعيان الشام فبينما هو كذلك اذ أقبل زين العابدين على ابن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وكان من أجمل الناس وجها، واطيبهم ارجا، فطاف بالبيت، فلما انتهى الى الحجر تنحى له الناس حتى استلم الحجر فقال رجل من أهل الشام لهشام:

من هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة؟ فقال هشام: لا اعرفه مخافة ان يفتتن به الناس، وكان شاعرنا الكبير حاضرا يسمع فقال: انا أعرفه. فقال الشامي: من هو؟ فقال:

**هـذا الذي تعـرف البطحـاء وطأتـه**

**والبيـت يعرفـه والحـل والحـرم**

**هـذا ابـن خيـر عبـاد اللـه كلهـم**

**هـذا التقـى النقـي الطاهـر العلـم**

**هذا ابـن فاطمـةٍ ان كنـت جاهلَـه**

**بجـده أنبيـاءُ الله قـد خُتمـوا**

**وليـس قولك: من هـذا بضائـره**

**العرب تعرف من أنكـرت والعجـم**

إذا رأتـــه قريـــش قـــال قائلهـــا :

إلى مكـــارم هـــذا ينتهـــي الكـــرم

ينمِـــي رلى ذروة العـــز التي قصـرت

عن نيلها عــرَبُ الاســلام والعجــم

يُغضى حيــاءً ويغضــي من مهابتــه

فمـــا يُكلَّـــم الا حيـــن يبتســـم

ينشق نور الهــدى عن نـــور غرتـــه

كالشمس ينجاب عن اشراقها الظلم

إلى آخر القصيد الرائع البليغ الذي تفجرت عنه عاطفة صادقة، وشاعرية مبدعة، فلما سمعها هشام ابن عبد الملك غضب وأمر بحبس الشاعر بين مكة والمدينة وفى ذلك يقول:

أتحبسنـي بيـن المدينـــــة والتـي

إليها قلوب الناس يهوى منيبهـــا

يقلب رأسـا لـم يكـــن رأس سيـــد

وعينـا لـه حـولاء بـــاد عيوبهـــا

ثم أطلقه هشام فوجه اليه علي بن الحسين عشرة آلاف درهم.

وقال: اعذرنا... فلو كان معنا في هذا الوقت أكثر من هذا لوصلناك، فردها الشاعر الهمام ورفض أن يأخذها وقال:

ماقلت ماكان إلا لله.

فقال له علي بن الحسين: قد رأى الله مكانك ولكنا أهل البيت إذا وهبنا شيئا لا نستعيده فقبلها

وفي (الكامل) للمبرد:

التقى الحسن البصري وهذا الشاعر الكبير في جنازة فقال للحسن: اتدري مايقول الناس يا أبا سعيد؟ يقولون:

اجتمع في هذه الجنازة خير الناس وشر الناس، قال الحسن: كلا، لست بخيرهم ولست بشرهم. ولكن ما أعددت لهذا اليوم؟

قال الشاعر العظيم: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله منذ ستين سنة [1].

وقيل انه رؤى في المنام بعد موته فقيل له: ماصنع بك ربك؟ فقال: غفر لي، فقيل: باي شيء؟ فقال بالكلمة التي نازعتها الحسن البصري على شفير القبر.

لم نكن لندرك هذا الشاعر ضمن الرجال الاوفياء الرافضين عبر التاريخ، لولا موقفه الوفي من زين العابدين سبط علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ذلك الموقف الرائع الذي أشاد به مشاهير الأدباء والمؤرخين في إعجاب وتقدير.

والحقيقة إن هذا الشاعر جدير بان يتبوأ مكانته بين الرافضين العظماء لهذا الموقف الشهم الذي وقفه.

---

(1) الكامل، وفي أمالي المرتضى، ج1، ص65، ثمانين سنة.

فلقد ابت عليه شهامته ومروءته ووفاؤه لاهل البيت ان ينكر الشمس وهي في رابعة النهار، أو يجحد الحق وهو واضح وضوح القمر في ليلة التمام، فقال في لهجة صادقة تحمل كل معاني الوفاء، وتنطق بكل دلالات المواجهة الرافضة للمجاملة والرياء: أنا أعرفه.

رفض السكوت، لأن السكوت في مثل هه الظروف تخاذل وضعف وسلبية.

ورفض المجاملة، لأن المجاملة في مثل هذه المواقف ميوعة وانحلال وخنوع.

رأى أن هناك غير الخليفة وغير الجاه اللذين يعبدهما الناس من دون الله، رأى ان هناك الحق الذي لا يتخلى عنه وعن مناصرته الا الضعيف الجبان.

وعندما وافاه زين العابدين بالمكافأة عن موقفه الشهم الرائع رفضها، وقال: ماقلت ماكان الا لله.

انه شاعر كبير يمدح وينال بمدحه جوائز ومكافآت، ويخلد بشعره مصالحه الشخصية والقبلية، ولكنه في مدحه لآل البيت، لا يطمع في حطام الدنيا ايا كان وزنه وثمنه، وانما يدفعه الى ذلك حبه لهم، ورغبته في رضاهم، وكونهم جديرين بالثناء والمدح والتعظيم.

بقى بعد هذا ان تعرف أن هذا الشاعر الهمام هو (الفرزدق) الذي قال فيه أبو عبيدة:

«لولا الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب».

«آمنت إِذ كفروا، وعرفت إِذ أنكروا، ووفيت إِذ غدروا، وأقبلت إِذ أدبروا...».

إنه من الأجواد العقلاء، وطاقة كبرى من العزم والحزم، والإرادة والثبات. كان رئيس طيّء في الجاهلية والإسلام، قال عنه ابن الأثير : «خير مولود في أرض طيّء وأعظمه بركة عليهم».

وقد أسلم في العام التاسع من الهجرة وكان قبل ذلك نصرانيا، ويحكي قصة إسلامه ويقول :

.. ولما بعث النبي ﷺ كرهته كراهية شديدة وكنت في أقصى الأرض مما يلي الروم، فكرهت مكاني أشد ما كرهت فقلت : لو آتيته، إن كان كاذبا لم يخف علي، وإن كان صادقا اتبعته فأقبلت، فلما قدمت المدينة بغير أمان ولا كتاب استشرفني الناس فقالوا : فلان.

فقال النبي .. أسلم تسلم. قلت إن لي دينا .. قال أنا أعلم بدينك. ثم قال : أسلم تسلم، قد أظن أنه إنما يمنعك غضاضة تراها ممن حولي، وأنك ترى الناس علينا إلبا واحدا .. ثم قال : هل أتيت الحيرة؟ قلت : لم آتها وقد علمت مكانها .. قال يوشك أن تخرج الظعينة منها بغير جوار حتى تطوف بالبيت، ولتفتحن علينا كنوز كسرى بن هرمز...

فقلت : كسرى بن هرمز؟ قال: نعم. وليفيضن المال حتى يهم الرجل من يقبل صدقته.

قال الطائي : فرأيت اثنتين : الظعينة، وكنت في أول خيل أغارت على كنوز كسرى، وأحلف بالله لتجيء الثالثة، يعني أن يكون من شواغل الإنسان البحث عمن يقبل صدقته لأن عدالة الإسلام جعلت كل فرد غنيا بحقه.

ووقف الطائي على صدق الرسول ﷺ وصدق تبوته من خلال سلوكه، فقد انطلق به مرة من المسجد إلى بيته، وفي الطريق لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف لها طويلا تحدثه عن أمر يهمها. قال الطائي : فقلت في نفسي والله ماهذا بملك. ثم مضى رسول الله حتى دخل بيتد، فأخذ وسادة من أدم محشوة ليفا فقذفها إلي فقال لي :

اجلس على هذه. قلت : لا بل أنت ..

وجلس على الأرض، فقلت في نفسي : والله ما هذا بأمر الملك.

وقد أسلم الطائي بعد أن اتضحت له الرؤية، واستبان الطريق وأدرك أن محمدا ﷺ منقذ الإنسان، وهاديه إلى الحياة الكريمة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة.

ويذكر الطائي في زهو وبهجة فيقول : ما دخلت على الرسول ﷺ قط إلا وسع لي، أو تحرك لي. وقد دخلت عليه يوما في بيته، وقد امتلأ من أصحابه فوسع لي حتى جلست إلى جنبه.

وأتى يوما إلى عمر بن الخطاب في أناس قومه، فأخذ عمر يفرض للرجل ويعرض عن الطائي، فقال له : أتعرفني؟ قال : نعم.

آمنت إذ كفروا، وعرفت إذ أنكروا، ووفيت إذ غدروا، وأقبلت إذ أدبروا .. إن أول صدقة بيضت وجوه أصحاب رسول الله ﷺ هي صدقة طيء.

واشتهر الطائي بموقف بطولي خالد سجله التاريخ بأحرف من نور، وردده المجالس والنوادي بالإعجاب والتقدير، ولقنه الآباء أبناءهم، والمعلمون تلامذتهم حتى يشبوا على الثبات على المبدأ، والتأبي على النقائص.

فحينما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وتولى قيادة الأمة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، اشرأبت أعناق قوم لم يتمكن في قلوبهم الإيمان إلى الكفر، وامتنعوا عن أداء الزكاة، وكانت محنة قاسية على المسلمين، ولولا عناية الله بالإسلام وحفظه له من الانطفاء والانتكاس لتغير وجه التاريخ، ولكن لله تعالى رجالا أقوياء العقيدة والإيمان يغارون على الإسلام غيرتهم على أعراضهم، ويسترخصون في سبيله أنفسهم وأموالهم هبوا يدافعون عنه ويقاتلون ببطولة واستبسال..

وكان الطائي المؤمن في مقدمة الثابتين على دينهم، الذائدين عن حوضه وحماه، الرافضين للكفر أن يكون له مكان في الجزيرة العربية.

وبادر بإحضار صدقة قومه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فحظي بالثناء العاطر، والشكر الجزيل.

وفي هذا المجال يقول الحارث بن مالك الطائي :

**وفينا وفاء لم ير الناس مثله**

**وسربلنا مجدا عدي بن حاتم**

وقد شارك البطل الطائي في فتوح العراق، وحارب الفرس، ووقف في كل ذلك مواقف بطولية تشرفه وتشرف الإسلام وتبقى على الدوام

عناوين المجد والعلا، وفي موقعة المثنى التي قتل فيها أكثر من ثلاثين ألفا من الفرس قتل المؤمن الطائي أحد فرسانهم الصناديد وهو (قباذ).

ومن أبرز مميزاته أنه كان يحب عليا ويُكّن له من التعظيم والتبجيل ما جعله يسكن الكوفة، ويشهد معه وقعة الجمل وفقئت عينه يومئذ كما يشهد معه صفين والنهروان.

يقول الأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد في عبقرية الإمام : وكان مع علي جمهرة القراء والحفاظ وأصحاب النسك والفقه والشريعة وهم خلق كثير يعدون بالألوف ويتفرقون في الحواضر والبوادي، ولا يزالون كأنبياء بني اسرائيل، منذرين متوعدين، ساخطين على ترف المترفين، منكرين لكل خلاف ولو يسير، في إقامة أحكام الدين لا يرضون عن الدنيا، ولا عمن رضي بها من طلابها، ولايستمعون إلى أمر إلا أن يكون في رأيهم وفاقا لحكم القرآن كما يفسرونه، وحكم السنة كما يعتقدونها، وطالما وقفوا بين علي والقتال لأنهم لا يستجيزونه، أو عن الصلح والتحكيم لأنهم يجهلون القرآن عن قبوله.

ويمضي العقاد يصف مواقف هؤلاء الرجال المخلصين الأوفياء الذين منهم بطل طيء إلى أن يقول :

فهؤلاء الأجناد من جند علي العارفون، لا يسمعون إلا ما أجازوه واستوجبوه لأنهم خرجوا في الأرض للتفريق بين الحلال والحرام، والمعروف والمنكر، فلا يجمعون على طاعة، ولا يحاربون أو يسالمون في جماعة، وهم أقرب الناس في ذلك العهد إلى الجهر بالنذير، والنداء بالتبديل والتغيير، والإصغاء إلى وحي الضمير قبل دعاء الأمير.

ولا أخالك ـ قارئي الكريم ـ إلا مدركا لمكانة المؤمن الطيئ وثباته، وشجاعته، ووفائه، وإخلاصه، ورفضه الدائم للضعف والهوان، والإضافة والتبعية، كل ذلك نلاحظه ونستشفه من وراء هذه المواقف التي وقفها أنصار علي وأجناده، كما أن ذلك طبعه وديدنه منذ أن رفض الكفر، واستقام على جادة الإسلام.

وتزداد إعجابا بهذا الرجل وتقديرا له، عندما تعلم أن قلبه مع الله دائما وأنه يخشاه في كل لحظة من لحظات حياته وأنه مثل صادق أمين للصحابي الذي رفض أن يراه الله حيث لا يحب أن يراه، أو على كيفية لا يرضى أن يراه عليها.

وقد قال رضي الله عنه : ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء، وما دخل وقت الصلاة قط إلا وأنا اشتاق إليها.

روى عنه المحدثون (66) حديثا، روى عنه جماعة من البصريين والكوفيين منهم همام بن الحارث، وعامر الشعبي، وتميم بن طرفة، وعبد الله بن معقل، والسري بن قطرى، وأبو إسحاق الهمذاني، وخيثمة ابن عبد الرحمن.

وكان جوادا كريما بعطي عطاء من لا يخشى الفقر، ولا عجب في ذلك أنه «عدي بن حاتم الطائي»[1].

ابن من كان مضرب المثل في الجود والسخاء.

---

(1) توفي بعد عمر طويل، اختلفت الروايات في تحديده فقيل مائة سنة، وقيل عشرون ومائة سنة.

«إِن غدوي ورواحي آمنا في جوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من الأذى والبلاء ما لايصيبني، لنقص كبير في نفسي».

ما أعظم الإيمان وما أعجب شأنه، إذا تمكن من قلب الإنسان نبعت منه أشعة وضاءة تبدد كل ظلام، وتفجرت منه قوة تفيض بكل خير، وانبثقت منه روح تسري في الجوارح فتدفع بصاحبها إلى ممارسة الحياة في عزة وكرامة واستعلاء، ويرفض معها كل ما من شأنه أن يخدش في كرامته، أو يحط من قيمته، أو ينقص من إيمانه، أو يحيد به عن الجادة القويمة التي اختار أن يسلكها.

وصاحبنا في هذا الفصل من الصحابة الأجلاء الذين يعتز المسلمون الأولون بهم. وينظرون إليهم بعين التقدير والاحترام.

أسلم قبل دخول الرسول ﷺ دار الأرقم، ولم يسلم قبله إلا ثلاثة عشر رجلا، وهاجر إلى الحبشة الهجرتين وحرم الخمر في الجاهلية وقال:

«لا أشرب شيئا يذهب عقلي، ويضحك بي من هو أدنى مني، ويحملني على أن أنكح كريمتي من لا أريد».

فلما حرمت الخمر أتى وهو بالعوالي فقيل له: قد حرمت الخمر: تبا لها قد كان بصري فيها ثاقبا [1].

وكان رضي الله عنه قد دخل بعد إسلامه في جوار الوليد بن المغيرة فأصبح وهو يرى ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء وقسوة الإيذاء، وشدة التعذيب، وهو يغدو ويروح في أمان الوليد، فقال لنفسه، إن غدوي

(1) فيه نظر، لأن تحريم الخمر عند أكثرهم بعد أحد.

ورواحي آمنا في جوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من الأذى والبلاء ما لايصيبني. لنقص كبير في نفسي.

ثم ذهب إلى الوليد بن المغيرة وقال له :

يا أبا عبد شمس، وفت ذمتك فقد رددت إليك جوارك، فقال الوليد، لم يا ابن أخي؟ لعله آذاك أحد من قومي!!

قال : لا. ولكني أرضى بجوار الله عز وجل ولا أريد أن أستجير بغيره.

قال الوليد : فانطلق إلى المسجد فاردد علي جواري علانية كما آجرتك علانية.

فانطلقا إلى المسجد. فقال الوليد لملأ من قريش:

هذا ابن أخي قد جاء يرد علي جواري..

قال لهم : قد صدق، قد وجدته وفيا كريم الجوار، ولكنني أحببت ألا أستجير بغير الله تعالى، فقد رددت عليه جواره.

وبينما هم في مجلسهم والصحابي الجليل يرد على الوليد جواره إذ وفد عليهم لبيد ابن ربيعة الشاعر المشهور فقعد ينشدهم من شعره فقال لبيد :

ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل

فقال الصحابي الجليل صدقت.

فقال لبيد : وكل نعيم لا محالة زائل...

فقال الصحابي : كذبت، نعيم الجنة لا يزول..

فقال لبيد : متى كان يؤذى جليسكم يا معشر قريش فمتى حدث فيكم هذا؟

فقام رجل من القوم وقال : هذا سفيه في سفهاء معه قد فارقوا ديننا، فلا تجدن في نفسك من قوله.

فرد عليه الصحابي المؤمن حتى استشرى أمرهما فقام ذلك الرجل إلى الصحابي ولطمه فاخضرت عينه والوليد ابن المغيرة في المجلس يرى ما وقع لابن أخيه من الأذى فقال:

أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك عما أصابها لغنية!! لقد كنت في ذمة منيعة!!

فقال الصحابي الجليل في نخوة الإيمان وعزة الإسلام : بلى والله أن عيني الصحيحة لفقيرة إلى ما أصاب أختها في الله وإني لفي جوار من هو أعز وأمنع وأقدر، يا أبّا عبد شمس.

وفي ذلك يقول ـ رضي الله عنه ـ :

**فإن تك عيني في رضا الرب نالها**

**يدا ملحد في الدين ليس بمهتَدِ**

**فقد عوّض الرحمن منها ثوابه**

**ومن يرضه الرحمن يا قوم يسعَدِ**

**فإني وإن قلتم غوى مضلل**

**سفيه على دين الرسول محمد**

أريــــد بــــذاك اللــــه والـحــــق ديـنـنـــــا

علـى رغــــم مـــن يبغـي علينــا ويعتـــدي

وتأثر علي بن أبي طالب لما أصاب عين الصحابي الجليل فقال رضي الله عنه :

أمـــن تـذكـــر دهـــر غـيــــر مـأمــــــون

أصبحــــت مكتئبــا تبكــي كـمـحـــزون

أمـــن تـذكــــر أقـــــوام ذوي سفـــــــه

يغشـــون بالظلـــم مـــن يدعـــو إلى الديــــن

لا ينتهـــون عـــن الفحشــــاء ما سلمـــوا

والغـــدر فيهـــم سبيــــل غيـــر مأمـــون

ألا تــــرون ـ أقـــل اللـــه خـيـــرهـــم ـ

إنـــا غضبنــــا لعثمــــان بــــن مظعـــون

إذ يـلـطـمـــون ولا يـخـشـــون مـقـلـتـــه

طعنـــــا دراكـــا وضـربـــا غيـــر مأفـــون

فسـوف يجزيهـم إن لـــم يمـــت عجـــــلا

كـيـــلا بكـيـل جـــزاء غـيـــر مغبـــون [1]

هكذا رفض هذا الصحابي المجاهد جوارا منيعا يقيه من كل سوء، ويحفظه من كل شر، ويأمنه من كل خوف.

---

(1) عن حلية الأولياء، ج1، ص104.

رفضه بعد أن رأى إخوانه في العقيدة والإسلام يسامون سوء العذاب، ويقاومون أشد المقاومة وأفظعها ليرجعوا إلى الوثنية والشرك ويكفروا بالله وبالرسول.

رفض هذا الجوار وهو يعلم أنه بذلك قد مكن المشركين من نفسه، وأعطاهم السلاح بيده، ولكنه لم يقرأ لذلك أي حساب، فما دام قد أرضى ضميره الذي طالما أنبه ونفى النوم عن جفنيه، فكل ما يلاقيه بعد ذلك من عذاب وهوان مع أصحابه المؤمنين عذب لذيذ.

وقد بدأه المشركون بالإهانة والإذاية في الوقت الذي أعلن فيه رفضه للجوار، وكان ذلك بابا فتحه الرفض بعد أن أغلقه الجوار!!!

إنه الإيمان الإيجابي الذي من علاماته أن يرفض صاحبه كل سلب وكل خوف، وكل تثاقل عن واجب أو جميل.. وكل معنى من معاني الأثرة والأنانية.

إنه الرفض الصارم الذي قد يعصف بحياة الإنسان، وقد يطيل ليله، ويؤخر صبحه، ولكنه مع ذلك يجعله كالجبل الأشم، الذي تمر به العواصف، وتهب عليه الأعاصير من غير أن تنال منه!!!

وهكذا انتصر المسلمون ـ وكانوا قلة ضعافا ـ وارتفعت رايتهم، وقويت شوكتهم، ودانت الدنيا لهم، وسارت سياستهم في الأرض كنور الله لا تعرف الحدود ولا الخصوص ولا الزمن!!!

وانتصر الصحابي الشهم الذي آثر جوار الله على جوار الوليد، واستبدل الإنس بابن أخيه بالإنس بربه.

ولما توفي جاءه النبي ﷺ فقبله ميتا حتى رؤيت دموعه تسيل على خد الصحابي وهو أول من مات بالمدينة من المهاجرين وأول من دفن بالبقيع منهم.

وقد رثته امرأته فقالت :

يا عـــيـــن جـــودي بدمـــع غيـــر ممـنـون

علـــى رزيـــَّة عثمـــان بـــن مـظـعـــون

علـــى امـــرئ كـــان فـــي رِضْـــوَان خالقِـــه

طوبـــى لـــه مـــن فقيـــد الشخـــص مدفـــون

طـــاب البقيـــعُ لـــه سكنـــى ومَرْقَـــدِه

واشرقـــت أرضُـــه مـــن بعـــد تَفْتِيـــن

وأورث القـلـــب لا انـقـطـــاعَ لـــــــه

حتـــى الممـــات وما ترقـــى لـــه شُونِـــي

أما من هو هذا الصحابي الجليل الرافض فإنه (عثمان ابن مظعون) رضي الله عنه، وقد ذكرته زوجته في مرثيتها له كما رأيت.

# «أما آن لهذا الفارس أن يترجل؟»

كم شربت الأرض من دماء أهل العقيدة والإيمان من أجل أن تنبت شجرة الإسلام وتتهدل أغصانها ويتفيأ ظلالها وينعم بثمرها الداني والقاصي...

فمن تلك المواقف الرائعة الخالدة التي صنعها الإيمان وصنعت بدورها تاريخا وعظمة وحياة، موقف تلك المرأة المؤمنة الصابرة التي رفضت بقوة وإصرار أن تلين للدهر، وتذل تحت خطوبه وصروفه.

إنه لموقف رائع بحق يعكس لنا صورة من صور النضال العقائدي في صدر الإسلام، والتضحية في سبيل الحق...

كما يصور لنا من هذه المرأة المؤمنة أصالة معدنها، ونفاسة جوهرها، ونبل غايتها، وشجاعة قلبها، وعظمة إيمانها، مما يجب أن تتحلى به المرأة المسلمة اليوم في هذا العصر المادي..

ذلك أن ابنها عبد الله قد خرج على يزيد بن معاوية الخليفة الأموي وشجعه على ذلك أهل الحجاز الذين بايعوه أميرا عليهم لعلمه وخلقه ومكانته...

وعجز الأمويون على إخضاعه سنوات بالرغم مما اشتهروا به من الغلظة والشدة في معاملة من خرجوا عليهم، فلما تولى عبد الملك بن مروان أرسل إلى عبد الله بن الزبير الحجاج بن يوسف فحاصره بمكة نحو ثمانية أشهر واستخدم كل وسائل الإغراء والإرهاب لإبعاد أعوانه عنه ..

ولما اشتد الحصار على عبد الله وبدأ أنصاره يتبرمون بالحياة القاسية التي كانوا يعانونها هذه المدة، دخل عبد الله على أمه، مكتئب

النفس مكلوم الفؤاد، وهو يتوجس خيفة من جيش الحجاج، وتنطق معالم وجهه بالقلق من سوء المصير... وقال لها مستشيرا:

«يا أماه خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، فلم يبق إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟».

فقالت أمه في إحساس مشبوب يتوقد إيمانا وحزما وشجاعة، وقد أدركت ما ينوء به من الهموم..

«أنت والله يا بني اعلم بنفسك؛ إن كنت تعلم أنك على حق، وإليه تدعو فامض له، فقد قتل عليه أصحابك. ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت؟ أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك، وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت، فليس هذا فعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلودك في الدنيا.. القتل أحسن.. والله لضربة بالسيف في عز أحب إلي من ضربة بالسوط في ذل».

فأجابها ولدها في طاعة وإذعان بأنه على حق ولكنه يخشى إذا لم ينتصر ولحقت به الهزيمة أن يمثل به الحجاج ومن معه.

فقالت له أمه قولتها المشهورة الخالدة التي يرددها لسان التاريخ، ويرن صداها في سمع الزمن.

«يا بني إن الشاة لا يضيرها سلخها بعد ذبحها..».

فيمضي عبد الله إلى ساحة القتال وقد أثرت فيه كلمات أمه القوية الصادقة فيقاتل في عزم وثبات ويصول بين المنايا صولة الأسد الهصور، ولكن يحدث ما كان يتوقعه ويؤول إلى أسوأ المصير الذي كان يخشاه، فيخر صريعا ويأخذه جيش بني أمية لينكلوا به أشد تنكيل، ويمثلوا به شر تمثيل، حيث يصلبون جثته في ساحة عامة أمام الغادي والرائح ثلاثة أيام.

كل هذا والأم البطلة صابرة تحمل في طوايا القلب حزنا عميقا وجرحا داميا، ولكنها لا تبديه بدمعة ولا كلمة، بل احتسبت ما أصابها في ابنها عند الله وفي سبيل الحق والجهاد..

ولكنها خرجت لتلقي عليه نظرة وداع أخيرة..

وفي الميدان العام وقفت في شجاعة وحزم وقالت للشامتين الحاقدين: «أما آن لهذا الفارس أن يترجل؟»

وقيل إن الحجاج دخل على البطلة المؤمنة بعد أن قتل ابنها فقال :

«يا أماه إن أمير المؤمنين أوصاني بك فهل لك من حاجة؟» فقالت :

«لست لك بأم إنما أنا أم المصلوب على الثنية، وما لي من حاجة ولكني أحدثك أني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يخرج من ثقيف كذاب ومبير، فأما الكذاب فقد رأيناه وأما المبير فلا أراك إلا إياه».

فقال : «أنا مبير المنافقين...».

ولم تمض إلا أيام قليلة حتى التحقت المؤمنة بابنها إلى دار الخلد..

يا لها من أم مثالية لا يعرف الحزن طريقه إلى قلبها..

ويا لها من امرأة بطلة تحرض ابنها على الاستشهاد في سبيل الحق وتدفع به إلى القتال وهي تعلم أنه لن يعود..

إنه الحق الذي يطغى على كل شيء.. حتى على غريزة الأمومة، إنه الحق الذي يزلزل كل القوى المادية مهما بلغت عظمتها..

إنه الحق الذي رفضت معه هذه المؤمنة القوية أن تتردد أو تحجم، ورفضت معه أن تسكت وتضعف، ورفضت أن تنحني وتستخذي.

وهل تعلم من هي؟

إنها أسماء بنت الصديق

« . . . يا هذا لا يطمعنك برك فيَّ إِن أسرك بالباطل ولا تُؤْيِسُكَ معرفتي بك أن أقول غير الحق» .

كتب معاوية إلى واليه بالكوفة أن يرسلها إليه، واعلمه أنه مجازيه بقولها فيه بالخير خيرا، وبالشر شرا.

وكانت مشهورة بالشجاعة والثبات، وقوة الحجة، والفصاحة والبيان، تخطب فتزلزل القلوب، وتناظر فتخرس الألسن القوالة، وتستشار فتضيء جوانب الحياة المظلمة بالرأي الصائب، والفكر السديد.

فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها فأقرأها الكتاب فقالت: أما أنا فغير زائغة عن طاعة، ولا معتلة بكذب، ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج في صدري.

فلما شيعها وأراد مفارقتها قال لها:

إن أمير المؤمنين كتب إليّ أنه يجازيني بقولك في بالخير خيرا وبالشر شرا، فما عندك؟

قالت: يا هذا، لا يطمعنك برك فيَّ إن أسرك بالباطل، ولا تُؤْيِسُك معرفتي بك أن أقول غير الحق.

فسارت خير مسير حتى قدمت على معاوية، فأنزلها مع حريمه ثم أدخلها عليه في اليوم الرابع وعنده جلساؤه.

فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

قال معاوية: وعليك السلام... وبالرغم منك دعوتني بهذا الاسم!!

قالت في لهجة صادقة: مه يا أمير المؤمنين فإن بديهة السلطان مدحضة لما يجب علمه «ولكل أجل كتاب».

قال : صدقت، فكيف حالك يا خالة؟ وكيف كنت في مسيرك؟

قالت : لم أزل في عافية وسلامة حتى صرت إليك، فأنا في مجلس أنيق، عند ملك رقيق!!!

قال : بحسن نيتي ظفرت بكم.

قالت : يا أمير المؤمنين، أعيذك من دحض المقال وما تردى عاقبته.

قال: ليس هذا أردنا، أخبريني كيف كان كلامك يوم قتل عمار بن ياسر؟

قالت : لم أكن ـ والله ـ زورته ولا رويته بعد فإن شئت أن أحدث لك مقالا خيره فعلت.

قال: لا أشاء ذلك، ثم التفت إلى أصحابه، فقال : أيكم يحفظ كلامها؟

فقال واحد منهم : أنا أحفظه كحفظي سورة الحمد ، كأني بها ذلك اليوم عليها برد زبيدي كثيف الحاشية، وهي على جمل أرمك، وقد أحيط حولها، وبيدها سوط منتشر الضفر، وهي كالفحل يهدر في شقشقته تقول :

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا ربَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ».

إن الله قد أوضح الحق، وأبان السبيل، ورفع العلم، فلم يدعكم في عمياء مبهمة، ولاسوداء مدلهمة، فإلى أين تريدون رحمكم الله، أفرارا عن أمير المؤمنين؟ أم فرارا عن الزحف؟ أم رغبة عن الإسلام؟ أم ارتدادا عن الحق؟

أما سمعتم الله عز وجل يقول :

«وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ المُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ».

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول :

قد عيل الصبر وضعف، وانتشرت الرغبة، وبيدك يا رب أزمة القلوب، فأجمع الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى، هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل والوصي الوفي، والصديق الأكبر..

إنها أحن بدرية، وأحقاد جاهلية، وضغائن أحدية، وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بني عبد شمس..

ثم قالت : «قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون».

صبرا معاشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم، وثبات من دينكم، وكأني بكم غدا قد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة، فرت من قسورة، لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، والبصرة بالعمى، وعما قليل ليُصبِحُنَّ نادمين.

إنه والله، من ضل عن الحق وقع في الباطل، ومن لم يسكن الجنة سكن النار.

أيها الناس، إن الأكياس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها، واستبطأوا مدة الآخرة فسعوا لها، والله لولا أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان، ما اخترنا ورد المنايا على خفض العيش وطيبه.

فإلى أين تريدون علي ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته، خلق من طينته، وتفرع عن نبعته، وخصه بسره، وجعله باب مدينته، واعلم بحبه المسلمين، وأبان ببغضه المنافقين، فلم يزل كذلك يؤيده بمعونته،

ويمضي على سنته، لا يعرج لراحة الذات، وهو مغلق الهام، ومكسر الأصنام، إذ صلى والناس مشركون، وأطاع والناس مرتابون، فلم يزل ذلك حتى قتل مبارزي بدر، وقد بالغت في النصيحة وبالله التوفيق».

فالتفت معاوية إلى المرأة الصادقة الوفية وقال لها :

والله ما أردت بهذا إلا قتلي، والله لو قتلتك ما خرجت في ذلك..

فقالت : والله ما يسوؤني يا ابن هند أن يجري الله ذلك على يدي من يسعدني الله بشقائه!!!

ثم أخذ معاوية يسألها أسئلة محرجة مثيرة، فأجابت عن بعضها بصدق وشجاعة، وقالت:

أسألك بحق الله يا معاوية ـ فإن قريشا تحدث أنك من أحلمها ـ إن تسعني بفضل حلمك، وإن تعفيني من هذه المسائل، وامض لما شئت من غيرها.

قال: نعم وكرامة، قد أعفيتك. وردها إلى بلادها معززة مكرمة.

والمتأمل في هذا الحوار، أو بعبارة أصح في مواجهة هذه المرأة لمعاوية، وفي موقفها بالأمس وهي تلهب الحماسة في الصدور، وتؤجج نار الحقد في القلوب، لمقاتلة أعداء علي ومناوئيه، يدرك من هذه المرأة شجاعة وبطولة، وصدقا ووفاء، وصراحة ووضوحا، وتمسكا بالمبدإ، ورفضا لكل التواء أو غموض أو ضعف.

لقد كان الأولى بهذه المرأة – لولا شجاعتها ، وهمتها العالية ووفاؤها للمبدأ الذي تؤمن به – أن تختفي اليوم وراء شخصية جديدة لتنال رضى

الخليفة، وقد أصبح كل شيء في يده، والسعيد من فاز برضاه، والشقي من استهدف شخصه، ولكنها رفضت ذلك وأبى عليها أصالة طبعها، ونبل أخلاقها، ورجاحة عقلها إلا أن تكون مع الحق ولو ضعف اليوم أهله، وانهزم أنصاره، لأنها ممن يعرفون الرجال بالحق، وما شقي الإنسان وانحطت مكانته، إلا يوم أصبح يناصر الحق إذا نصره الناس، ويخذله إذا خذله الناس، ويقول هذا صدق وهذا كذب تبعا للناس في آرائهم وأهوائهم.

ولقد استأسد الإنسان على أخيه وتنمر، يوم ضعفت الهمة، وتوارت الشجاعة الأدبية، واستبد بالإنسان حب المادة، وصار همه الوحيد (أن يعيش) ورأى أن (السلامة في التملق والرياء والمجاملة) فضاع الإنسان وضاعت الحقيقة...

أما هذه المرأة الوفية الرافضة التي خلد ذكرها التاريخ لشجاعتها واستقامتها على جادة الحق فهي :

«أم الخير بنت الحريش البارقية» رضي الله عنها.

لقد علمت ثقيف ـ غير فخر ـ

بأنا نحــن أكرمهم سيــوفــا

وأكــرمــهـم دروعــا ســابغــات

وأصبرهم إذا أكرهوا الوقوفا

**شاعر فارس مغوار، أدرك الجاهلية والإسلام، إلا** أنه أولع في الجاهلية بالخمر حتى شاع صيته بها حتى أنه قال :

**إذا مــــتُّ فادفِنــي إلــى أصـــل كَــرمـــة**

**تُــرَوِّي عِظامــي بعــد موتــي عــرُوقُــهَـــا**

**ولا تَــدْفِـنـنَّـنِّــي بــالــفَـــلاة لأَنــنـــي**

**أخـــاف إذا مــــتُّ ألاّ أذوقــــهَـــا**

**لِيُــرْوَى بخمــر الحــص لحمــي فإننــي**

**أسِيــرٌ لــهــا مــن بعــد ما قــد أسـوقُـهَـا**

ولما جاء الإسلام أعرض عن الخمر نزولا على حكمه رغم كلفه بها ولكنه ضعف أمام إغرائها فعاد إليها، فكان يحتسي ما يبرد غليله ولما علم بذلك الخليفة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أقام عليه الحد، ولكنه لم ينته منها فكان يحتسيها كما كان من قبل فنفاه الخليفة إلى القادسية في وقت كان المسلمون يستعدون لخوض المعركة التاريخية ضد الفرس فحبسه سعد وقيده في قصره واندلعت المعركة وسمع الشاعر المغوار صليل السيوف، وضجيج المعركة، وصهيل الجياد، فهفا قلبه إلى الجهاد وتاقت نفسه إلى ميدان الشرف ليصول ويجول، ويسجل صفحة مشرقة في تاريخ البطولات الإسلامية، وهو الذي شب على الأنفة والحمية والإباء، واشتهر بالثبات والقوة في ميادين الموت ـ وأخذ ينشد :

كفى حـزنا أن ترتـدي الخيـل بالقنـا
وأُتـرَك مشـدودا علـيَّ وثـاقيـا
إذا قمـت عنانـي الـحـديـد وأُغْلِقَـتْ
مَصَارِيعُ مِـن دونـي تـصـم الـمنـاديـا
وقـد كنـت ذا مـال كثيـر وإخـوة
فقـد تركـونـي واحـدا لا أخاليـا
وقـد شَـفَّ جسمـي إننـي كـل شـارق
أعالـج كبـلا مصمتـا قـد برانيـا
فللَّـه دري يـوم أُتْـرَكُ موثـقـا
وتذهـل عنـي أسـرتـي ورجاليـا
حبيسا عن الحـرب العـوان وقـد بَـدَتْ
وإعمـال غيـري يـوم ذاك العواليـا
وللَّـه عـهـد لا أخـيـس بعهـده
لئـن فُـرِجَـتْ ألا أزور الـحـوانـيـا

وسمعته سلمى بنت أبي حفصة زوجة سعد بن أبي وقاص، ثم رأته مقبلا عليها وهو يزحف في قيده حتى وصل إليها فقال لها : يا بنت أبي حفصة هل لك إلى خير؟

قالت : وما ذاك؟

قال تخلين عني وتعيرينني البلقاء، فلله علي أن سلمني الله أن أرجع إلى حضرتك حتى تضعي رجلي في قيدي!!

فقالت : وما أنا وذاك؟

فرجع البطل يرسف في قيوده والأسف يمزق قلبه ويعتم الدنيا أمام عينيه.

ولكن سلمى فكرت في الموضوع، وأحست بصدق قوله وبحقيقة مشاعره فرأت أن تلبي طلبه، وتحقق رغبته فقالت له :

قد استخرت الله تعالى ورضيت بعهدك.. ما أطلقت سراحه وأعطته السلام والبلقاء (فرس) زوجها.

وانطلق الشاعر البطل، والمؤمن الوفي إلى المعركة، وسيفه في يده يقصف به الأعداء قصفا منكرا، لا يزحف بفرسه، ولا يهجم بسيفه إلا هزم الأعداء شر هزيمة، وأقام منهم مجزرة رهيبة، فهال الناس أمره حتى قال بعضهم (ما هذا والله إلا ملك) وقال آخرون إن كان الخضر يشهد الحرب فهو صاحب البلقاء!!

أما سعد بن أبي وقاص فإنه قال: وهو يشرف على المعركة ويشاهد البطل يطيح بالرؤوس:

هذه البلقاء، والزحف زحف شاعر ثقيف، وشاعر ثقيف في القيد!!!

فلم يزل البطل الشهم يقاتل باستبسال حتى انتصف الليل... وانتهت المعركة وانتصر المسلمون، وانهزم الفرس وعاد البطل إلى سلمى فوضعت رجليه في القيد وأخذ يقول :

لـقــد علمـــتْ ثَقِيـفٌ غيــر فخـــر
بأنا نحــن أكرمُهُـــم سـيــوفـــا
وأكــرمُهـــم دروعـــا ســابـغَـــاتٍ
وأصبرُهــم إذا أكـرِهــوا الـوقـوفـــا
وأنَّــا رِفـدُهـــم فـــي كُــلِّ يـــــوم
فإن حجـدوا فَسَلْ بهـمُ عَـرِيـفـــا
وليلـــة قـادس لـــم يَشعُــروا بِــي
ولـم أكـرَه بمخرجـــي الصفـوفـــا
فإن أُحْبَــسْ فـقـــد عرفــوا بلائــي
وإن أُطلَـــقْ أجرِّعْهـــم حتــوفـــا

ثم جاء سعد وأخذ يحدث زوجته عن البطل الذي روع الأعداء وشتت شملهم وألحق بهم هزائم نكراء وقال لها :

«لقينا ولقينا حتى بعث الله رجلا على فرس أبلق لولا أني تركت شاعر ثقيف في القيد لظننت أنها بعض شمائله!!».

فقال له سلمى :

والله إنه هو!!

ثم روت له ما حدث فأسرع سعد إلى البطل الوفي وقال له : والله لا أجد اليوم رجلا أبلى الله المسلمين على يديه ما أبلاهم على يديك. ثم فك قيده وقال له : لست مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله.

فقال البطل قد كنت أشربها وكان الحد يقام علي وأطهر منها فأما إذ نهيتني فلا والله لا أشربها أبدا ثم أنشد :

**إن كانتا الخمـر قـد عـزَّت وقـد مُنِعـت**

**وحال من دونـهـا الإسـلام والحـرجُ**

**فقـد أباكِرُهـا صِرفًـا وأمـزِجُـهـا**

**ريًّـا وأطـرَبُ أحـيـانـا وأمـتـزجُ**

**وقـد تقـوم علـى رأسـي منعَّمَـة**

**فيها إذا رفَعَـتْ من صـوتـهـا غَنَـجُ**

**ترفـع الصـوتَ أحـيـانًا وتخفـضـه**

**كمـا يطـنُّ ذُبـابُ الروضـة الهَـزِجُ**

ودخل ابن هذا البطل على معاوية فقال له :

أليس أبوك الذي يقول :

**إذا مـتُّ فادفنِـي إلـى أصـل كَـرمـة**

**تـروي عِظامـي بعـد موتـي عُـرُوقُـهَـا**

**ولا تَـدْفِـنَـنِّـي بـالـفَـلاة فإنَّـنـي**

**أخـاف إذا مـتُّ ألاَّ أذوقـهَـا**

• فقال له ابن البطل في شجاعة : لو شئت لذكرت له ما هو أحسن من هذا من شعره!!!

قال معاوية وما ذاك؟ قال : قوله :

لا تسـألي اليـوم عن مـالي وكثرتـه
وسائـلي النـاس ما فِعـلي ومـا خُلُقـي
أعطـي السِّنَـان أَمَـامَ الـروع حِصَّتـه
وعامـل الرمـح أرويـه من العَـلَـق
واطعَـنُ الطعنـةَ النجـلاءَ عن عُـرُضٍ
وأحفـظ السِّـرَّ فيـه ضربـة العُنُـق
عِفٌّ المطالـب عمَّـا لسـتُ نائلـه[1]
وإن ظُلِمْـتُ شديـدُ الحقـد والحنَـق
وقـد أجـود وما مـالي بـذي قنـع[2]
وقـد أكُـرُّ وراءَ المحْجَـم الفـرق[3]
والقـوم تعْلَـمُ أنِّي مِن سَـرَاتهـمُ
إذا سمـا بصـرُ الرِّعْديـدَةِ الشَّفِـقِ
قـد يُعْسِـرُ المـرءُ حينـا وهو ذو كـرَم
وقـد يثوب ثـواب العاجـز الحمِـقِ
سيكثُـر المـالُ حينـا بعد قِلَّتـه
ويكتـسي العـود بعد اليبْـس بالـورقِ

(1) وفي رواية (قائله).
(2) القنع بالفتح: الجود الكثير والفضل الواسع، وقد يراد به الكثير من كل شيء.
(3) الفرق: من الفرق وهو الخوف.

فقال له معاوية :

إن كنا أسأنا إليك القول، لنحسنن لك الصفد ـ أي العطاء ـ ثم أجزل صلته وقال : إذا حبلت وولدت النساء فلتلد مثلك!!

وأحسبك الآن -قارئي الكريم-، تريد أن تعرف من هو هذا البطل ولا تطيق صبرا على السكوت عنه بعد أن بهرتك بطولته وشهامته، وراقتك مواقفه ومناقبه، وهزتك أفعاله وخوالده، وشاهدت طرازا رائعا من الرفض الصارم العنيد الذي يزلزل الجبال، ويحرك العزائم الخامدة، ويبعث من في القبور!!!

إنه البطل الخالد الذكر «أبو محجن الثقفي».

«وهكذا فليكن التصوف جهادا في تهذيب النفس، وجهادا في خدمة المجتمع، وجهادا في عبادة الله تعالى».

من كبار الصوفية، ومشاهير السلف، ومن الذين جاهدوا أنفسهم فانتصروا عليها. سماه الشيخ الحافظ أبو نعيم في كتابه «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء»: التائه الوحيد، الهائم الفريد.

كان جده مجوسيا فأسلم وكان له أخوات صالحات عابدات اشتهرن بالزهد. قضى حياته في بسطام ما عدا فترات قصيرة اضطر فيها إلى العيش بعيدا عن بلده، وتنسب إليه أقوال كثيرة تبلغ خمسمائة قول بعضها في غاية الجرأة، يستشف منها أنه بلغ بالمجاهدة حالة الفناء في الله تعالى فأصبح «عين الجمع» كما يقولون.

ومن أقواله التي يحدد فيها سلوك الصوفي الصحيح قوله : إذا رأيتم الرجل قد أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود والوقوف عند الشريعة.

وهكذا يرفض هذا العالم الزاهد المتصوف، المفهوم الشائع بين العوام للمتصوف من أنه الطويل اللحية، والمطأطئ للرأس، واللابس لثياب خشنة متسخة، يضاف إلى ذلك كله تمسكن وتخاذل وتماوت وانزواء في المسجد.

فهذا المفهوم السخيف الذي يتنافى مع الإسلام كل التنافي هو الذي يفهمه الكثير من المسلمين السطحيين عن المتصوف لأنهم رأوا بعض (المتصوفين) كذلك، وهو المفهوم الذي رفضه خواص العارفين الأفذاذ الذين منهم هذا العالم الزاهد.

والمفهوم الصحيح، للمتصوف الصحيح، هو ما ترسمه هذه الكلمات، وتبين معالمه هذه العبارات :

«طموح إلى العلا، وهيام بالحقيقة، وانجذاب إلى النور، وعمل جاد في سبيل الحق، وجهاد بالقلب وباللسان وبالمدفع، من أجل حياة كريمة عزيزة تلائم إنسان الإسلام والقرآن، خليفة الله في الأرض».

وقد كان هذا المتصوف العالم مثالا صادقا للمتصوف بهذا المفهوم.

لقد انجذب نحو النور، وتفانى في عبادة الله، ونزل إلى الميدان يأخذ ويعطي، وينفع وينتفع، ويأمر وينهي وكان يرابط في سبيل الله مسلحا مستعدا للقتال في سبيل الله وفي سبيل الواجب المقدس.

والمرابطة ـ كما هو معروف ـ هي الإقامة في ثغور البلاد ومداخلها على حدود المحاربين لمقاتلتهم، وردهم على أعقابهم بالحديد والنار.

ولم يكن هذا المتصوف مرابطا فحسب، بل كان مرابطا وذاكرا. بذلك كان يجمع بين حالتين من الحالات المحظية في عمر الإنسان ذكرهما الرسول ﷺ في قوله :

«عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين سهرت تحرس في سبيل الله».

وكان هذا العالم المتصوف يرتقي فوق سور الرباط ويستمر طيلة الليل حارسا له ممن يقصده من الأعداء، ويحكي عن نفسه ويقول : «لم أزل منذ أربعين سنة أني ما استندت إلى حائط إلا إلى حائط مسجد أو رباط، فقيل له، لم لا تستند؟ في ذلك رخصة؟ فقال : سمعت الله عز وجل

يقول : «**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**» فهل ترى من رخصة؟

ومن أقواله التي تناقلها العلماء قوله : « العارف فوق ما يقول، والعالم دون ما يقول، والعارف ما فرح بشيء قط ولا خاف من شيء قط، والعارف يلاحظ ربه، والعالم يلاحظ نفسه بعلمه، والعابد بالحال، والعارف يعبده في الحال، وثواب العارف من ربه هو، وكمال العارف احترافه فيه له».

وأورد الحافظ أبو نعم طائفة من أقواله ثم قال : «اقتصرنا على هذا القدر من كلامه لما فيه من الإشارات العميقة، التي لا يصل إلى الوقوف على مودعها إلا من غاص في بحره، وشرب من صافي أمواج صدره، وفهم نافثات سره، المتولدة المنتشرة من سكره».

وهكذا فليكن التصوف جهادا في تهذيب النفس، وجهادا في خدمة المجتمع، وجهادا في عبادة الله تعالى.

وهكذا كان هذا الصوفي الزاهد، والعالم العارف، يحيا حياة الإسلام، حياة جهاد وكفاح وصبر، حياة عمل وحركة ونشاط، حياة بناء وصنع وتاريخ، لا سلبية فيها ولا اعتزال، ولا ضعف ولا تهاون، ولا تخاذل ولا استخذاء، ولا تظاهر ولا تلبيس.

وإذا كان الناس يظنون أن المتصوف المتعبد هو ذلك الذي يعتزل المجتمع، وينطوي على نفسه في خلوة، ويقضي نهاره وليله في قراءة الأوراد، حتى يأتي أجله، وتنسج حوله حكايات وقصص، وتشد إليه الرحال، ويشاد بمناقبه ومآثره في كل مكان ـ فإن المتصوف الحق عند

العارفين هو الذي رفض الكسل ولبطالة، ورفض الانطواء والعزلة، ورفض البدع والخرافات، ورفض التمارض والتماوت.

وما أجمل وأصدق كلمة هذا المتصوف العالم التي حدد بها سلوك الصوفي الصحيح حيث قال :

«إذا رأيتم الرجل قد أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عن الأمر والنهي وحفظ الحدود والوقوف عند الشريعة».

فالعبرة كل العبرة عند عالمنا المتصوف إذن أن يمتثل المرء لأوامر الله تعالى، ونواهيه، ويقف عند حدود الشريعة فلا يتعداها، أما ما عدا ذلك من ظواهر، وأشكال، وأحوال، فلا قيمة لها ولا وزن، عند الله.

ذلك ـ عزيزي القارئ ـ الصوفي الزاهد، والمجاهد الرافض «أبو يزيد البسطامي».

«من يعد الألم أعظم مصائب الحياة لا يقدر أن يكون شجاعا، ومن يعد الملذات أعلى مطالب الدنيا لا يقدر أن يكون معتدلا».

من الصفات الحميدة التي يعد المرء بها عظيم الشخصية غالي القيمة، ثقيل الوزن، الشجاعة.

وهي شدة القلب، وقوة النفس عند اليأس، وهي ضرب من الصبر، أساسها الضمير، وقوة الإرادة، فالرجل القوي الإرادة إذا اقتنع في أمر تمسك به، وإذا رأى الصواب في قتال ثبت فيه، أو في قول جاهر به، وإذا حم القضاء وحان الموت ضبط نفسه وسيطر على أعصابه، وكبح خوفه واضطرابه.

ولخطورة الشجاعة وأهميتها ولأنها المحور الذي يدور حوله كل عمل إيجابي في هذه الحياة قالت العرب :

«الشجاعة عماد الفضائل ومن فقدها لم تكمل فيه فضيلة». وقال شيشرون :

«من يعد الألم أعظم مصائب الحياة لا يقدر أن يكون شجاعا، ومن يعد الملذات أعلى مطالب الدنيا لا يقدر أن يكون معتدلا».

فالشجاعة باعتبار السالف ضروب كثيرة. ترجع إلى أصلين :

الشجاعة البدنية وهي تتمثل في صمود المرء وثباته في المعركة دفاعا عن دين أو وطن أو عرض. والشجاعة الأدبية وهي تتجلى في الجرأة في إبداء الرأي أو في الدفاع عن مبدأ أو علم بلا خوف، ولا حذر، ولا تردد.

ومن يتتبع كتب الأدب والتاريخ يجد نماذج رائعة تستثير كل الإعجاب لذوي الشجاعة البدنية والأدبية الذين وقفوا مواقف شجاعة مشرفة في ساحة الوغى أو في الدفاع عن الحق، فبقيت أخبارهم تردد في المجالس والنوادي، وهي من خير ما يلقن للأبناء لغرس الشجاعة في نفوسهم في أول عهدهم بالحياة.

وتحضرني قصة من أروع القصص في ميدان الشجاعة والثبات أمام الموت، وهي مما يروى عن أحمد ابن أبي داود القاضي، وكان معجبا بها إلى حد الدهشة.

وخلاصتها أنه خرج على الخليفة المعتصم رجل من الخوارج فجيء به أسيرا وأدخل عليه في يوم موكب، وقد جلس المعتصم للناس مجلسا عاما، ودعا بالسيف والنطع فلما مثل بين يديه نظر إليه المعتصم فأعجبه شكله وقده ورآه يمشي إلى الموت غير مكترث به، فأطال الفكرة فيه ثم استنطقه لينظر في عقله وبلاغته فقال له :

إن كان لك عذر فائت به !!

فقال :

أما إذا أذن أمير المؤمنين، جبر الله به صدع الدين، ولم به شعث المسلمين، وأحمد شهاب الباطل، وأنار سبل الحق، فالذنوب ـ يا أمير المؤمنين ـ تخرس الألسن، وتصدئ الأفئدة، وايم الله، لقد عظمت الجريمة، وانقطعت الحجة، وساء الظن ولم يبق إلا العفو وهو الأليق بشيمتك الطاهرة، ثم أنشد يقول :

أرى المـوتَ بيــن السيـفِ والنطعِ كامنـًـا
يلاحظنـــي مـــن حيـــث لا أتـلَفــَّتُ
وَأكـثــرُ ظنـــي أنَّـــكَ اليـــوم قاتـلـــي
وأيُّ امــرئٍ ممـَّا قضـى اللَّـهُ يُفلِـــتُ
ومـــن ذَا الــذِي يأتـي بعُــذْر وحُجَّـــةٍ
وسيــفُ المنـَايَـا بيـنَ عيْنيْــهِ مُصْلَــتُ
ومـا جـَزَعــي مِـــن أَنْ أمــوتَ وإِننِـــي
لأَعْلــمُ أنَّ الـمــوتَ شـــيءٌ مُؤَقَّـــتُ
ولكــِنَّ خَلفـــي صبيـــةً قـــد تركتُهـــم
وأكبَادُهــم مـــن حَسْـــرَةٍ تَتَفَتَّـــتُ
كأنـــي أراهـــم حيـــنَ أُنْعـَـى إِليهِـــمُ
وقــد لَطَمــُوا تلــك الخُــدودَ وَصوَّتُـوا
وَ إِنْ عشــتُ عاشـُوا سالميـــن بِغِبْطَـــةٍ
أَذُودُ الــرَّدَى عَنْهُــمْ وإِنْ مــِتُّ مُوِّتُـــوا
وكَـــم قائـــلٍ لا يبعـــدُ اللَّـــهُ دائــــرَه
وأخـــرَ جــَذْلَانَ يُســـَرُّ ويشْمُـــــتُ

فبكى المعتصم وقال :

إن من البيان لسحرا، ثم قال : كاد والله أن يسبق السيف العذل، وقد وهبتك لله رلصبيتك. وأعطاه خمسين ألف درهم.

إن هذا الرجل الشجاع الذي عاين الموت ومشى إليه بخطوات ثابتة دونما خوف، هو تميم بن جميل الخارجي.

ومما ينتظم في هذا العقد ما حكاه الأستاذ أبو علي، قال :

لما سعى غلام خليل بالصوفية إلى الخليفة بالزندقة أمر بضرب أعناقهم. فأما الجنيد فإنه استتر بالفقه، وأما الشخام والرقام الثوري وجماعة فقبض عليهم وبسط النطع لضرب أعناقهم، فتقدم الثوري فقال له السياف :

أتدري لماذا تتقدم؟ قال : نعم. قال : فما يعجلك؟ قال : أوثر أصحابي بحياة ساعة.

فتحير السياف. ونما الخبر إلى الخليفة فردهم إلى القاضي ليعرف أحوالهم. فألقى القاضي على أبي الحسن الثوري مسائل فقهية، فأجاب عن الكل. ثم أخذ يقول :

إن لله عبادا إذا قاموا قاموا بالله، وإذا نطقوا نطقوا بالله، وأخذ يعرض طائفة من المعاني في هذا المضمار حتى بكى القاضي فأرسل إلى الخليفة يقول :

«إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم» فأكرمهم وأطلقهم.

بهذه الشجاعة النادرة، استقبل هؤلاء الموت ومشوا إليه، لأنهم يملكون رصيدا فخما من الإيمان جعلهم يعتقدون أن الأعمار في يد الله، وأنها محدودة الأجل، وليس لأحد مهما كان أن يزيد لها أو ينقص منها لحظة واحدة، فلم الخوف والفزع إذن؟؟ '

وأيضا فقد يأتي الفرج عندما تشتد الأزمة، وينبثق النور حينما يستحكم الظلام. فليست الأسباب منحصرة فيما علم الإنسان، ولا الطرق مقصورة على ما عرف، ولأنه كثيرا ما وجد الخير فيما كان يظنه شرا، وكثيرا ما وجد الشر فيما كان يظنه خيرا، وربما استتبعت الشرور السرور، فليس هناك ما يدعو إلى اليأس والجزع أو القلق والحيرة.

ولذا يرفض المؤمنون الصادقون، أولو العزم والوفاء، الضعف والجزع أمام الموت فيتقدمون إليه بقلوب مطمئنة وثغور باسمة، ورؤوس مرفوعة، كأنهم إلى عرس ذاهبون أو إلى أهلهم راجعون.

«والله ما زالت قدماي من مكانهما حتى علمت إنني خنت الله ورسوله».

تعتري الإنسان فترات ضعف، يغفو فيها الضمير، ويخبو فيها نور العقل، وتنهزم فيها النفس أمام دوافع الهوى، ونوازع الشهوة، فيرتكب الإنسان ذنبا، أو يمارس محرما، أو يقترف جرما، فإذا انقضت فترة الضعف، عاد إلى القلب إيمانه، وإلى الضمير يقظته، وإلى العقل نوره وهداه، وإلى النفس رشدها وسدادها، فعندئذ تتضح الرؤية، وتتجلي الحقيقة ويظهر الحق حقا، والباطل باطلا.

وشعور الناس بثقل الذنب وخطره بعد انجلاء الظلام على البصيرة يختلف باختلاف طبيعة النفس، وقوة الإيمان أو ضعفه.

فهناك من يرتكب الكبائر، ويمارس الموبقات المنكرة ويقترف من المعاصي أعظمها وأفحشها، ثم لا يرى في ذلك حرجا، ولا يعتبره إلا شيئا هينا، وأمرا يسيرا.

وهناك من تزل به القدم، ويلم بصغيرة هينة ولكن ضميره اليقظ، وقلبه المؤمن، وعقله البصير، يضخم له تلك الصغيرة، ويكبر له تلك الهفوة، حتى تملأ أقطار نفسه هما وغما، ويشعر كأن الدنيا قد اظلمت في وجهه فيظل حزينا مكتئبا، تمزقه الحسرات، وتعتصره الآلام حتى يمن الله عليه بالفرج فيشعر بالسكينة والطمأنينة.

وصدق الرسول ﷺ إذ يقول :

«إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وأن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فهو يقول بيده : هكذا هكذا».

وإن التاريخ الإسلامي لحافل بمواقف رائعة لأصحاب رسول الله ﷺ في حظيرة الجهاد الأكبر، جهاد النفس والهوى، فكان أحدهم إذا زل زلة أيقن أنه قد هلك، وراح ينطوي على نفسه في حزن وكآبة إلى أن يعود إلى ساحة الله تعالى.

ومن النماذج الخالدة للذين خافوا مقام ربهم وأيقنوا أنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فكانوا منه على حذر وخوف، هذا الصحابي الجليل الذي ما تذكرت قصته إلا وأحسست بتضاؤل أمام الوضع الذي آل إليه أمر الناس اليوم من الخيانة والغدر وسفك الدماء دون أن يكترثوا.

إنه صحابي جليل شهد العقبة وبدرا واستخلفه الرسول ﷺ على المدينة حين خرج إلى غزوة السويق، وكانت معه راية بني عمرو بن عوف في غزوة الفتح.

وخلاصة قصته أنه عندما ضربت الجيوش الإسلامية حصارا على بني قريظة بعد أن نقضوا عهدهم يوم الأحزاب ورأوا أنهم لا محالة مأخوذون وأن الله تعالى سينزل بهم عقابه الشديد الذي ينزله بالخونة الذين لا ضمير لهم ولا عهد - بعثوا إلى الرسول ﷺ يطلبون منه أن يرسل إليهم هذا الصحابي ليستشيروه في أمرهم، واختاروه لأن ماله وولده وعياله فيهم، ولأنه أيضا من الأوس حلفاء بني قريظة.

فأرسله الرسول إليهم، فلما وافاهم قام إليه الرجال وأسرع إليه النساء والأطفال وقد أجهشوا بالبكاء فرقَّ لحالهم وأثار مشهدهم وجدانه وعاطفته فنسي ما كان منهم من خيانة لعهد الرسول والمسلمين ومؤازرة

العدو عليهم حتى أحيط بالمسلمين من كل جهة وتمكنوا منهم وسدوا منافذ النجاة عليهم، واستبد بهم الكرب، وضاقت بهم الأرض، وضاع عنهم الرأي فلم يتبينوا ما يأتون وما يدعون كما حكى القرآن الكريم ذلك في قوله :

**«إِذْ جَاؤُوكُم مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً».**

استشار بنو قريظة الصحابي الجليل في النزول على حكم الرسول ﷺ. فقال لهم : نعم. وأشار بيده إلى حلقه، يريد أن النبي سيذبحهم إن نزلوا على حكمه! إشارة عابرة منه أيقن حين صدرت منه أنه بها قد خان الله ورسوله، وأن هذه الحركة السريعة حين مرت بها يده على حلقه تنطوي على تحريض لليهود يدفعهم إلى التمرد على أمر السماء فلا ينزلون على حكم الله ورسوله.

قال الصحابي الجليل : « والله ما زالت قدماي من مكانهما حتى علمت أني خنت الله ورسوله».

ويمضي الصحابي الجليل يصور خلجات نفسه ويعبر عما يجيش في صدره في تلك اللحظة الرهيبة التي زلت فيه قدمه، وأحاطت به خطيئته فيقول :

«ثم ندمت واسترجعت، ولقد نزلت وإن لحيتي لمبتلة من الدموع، والناس ينتظرون رجوعي إليهم، لكني ما رجعت بل أخذت من وراء الحصن طريقا آخر حتى جئت المسجد».

وهكذا ثارت في نفس الصحابي المؤمن دوامات عنيفة من الحزن والأسى وذهب على وجهه وقد عرف خطورة الجرم الذي ارتكبه، وتبين عمق الهاوية التي سقط فيها، فذهب مسرعا إلى المسجد النبوي، وسياط الضمير تنهال عليه بالتأنيب والتعنيف والتوبيخ، وربط نفسه بسلسلة إلى عمود من عمده وأقسم لا يبرح مكانه حتى يتوب الله عليه، أو يموت.

وأقام على هذا الوضع لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى يخر مغشيا عليه، وكانت زوجته أو بنته تأتيه فتحله إذا حضرت الصلاة ثم يعود.

وظل الصحابي المخلص على هذه الحال أياما. ففي سحر ليلة نزل على الرسول ﷺ وهو في بيت أم سلمة قوله تعالى: «**وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**».

فضحك الرسول ﷺ فقالت له أم سلمة مم تضحك يا رسول الله؟ فأخبرها بأن الله قد تاب على الصحابي المذنب.

فقالت: أفلا أبشره يا رسول الله.

تريد بذلك أن تبادر الصحابي بالبشرى فيكون لها بهذا السبق أعظم الأجر عند الله. فقال لها ﷺ: «بلى إن شئت».

فقامت أم المؤمنين فبشرته بالتوبة.

فما إن سمع ذلك حتى تغشاه الفرح، وغمرته البهجة، وسرت في كيانه هزة الرضى، وثار الناس ليطلقوه فأبى حتى يكون الرسول هو الذي يطلقه بيده، فلما مر به خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه...

فما كان من الصحابي بعد هذه المحنة القاسية التي اكتوى بلظاها إلا أن عاهد اللّه أن لا يطأ أرض بني قريظة ما بقي من عمره ـ مع أن له بها أموالا ـ وأن لا يرى في بلد خان فيه الله ورسوله. وأن ينخلع من ماله صدقة لولا أن الرسول ﷺ قال له : يجزئك الثلث.. فتصدق بثلث ماله...

هكذا كان حال هذا الصحابي الجليل من إشارة خفيفة بدرت منه لقوم نقضوا العهد.

إشارة خفيفة عابرة عدها الصحابي البدري معصية كبرى، وجريمة عظمى، فزع لها هذا الفزع، وخاف منها هذا الخوف، وتكدرت حياته هذا التكدر، فرفض النوم والطعام طوال أيام وليالي، ورفض أن يطأ أرض بني قريظة رغم حاجته إليها، ورفض أن يرى في بلد ارتكب فيه ذنبا أخرجه عن الجماعة المسلمة!!!

إن في طيات هذه القصة درسا كبيرا، وعبرة عظيمة، وتوجيها حكيما، لمن أراد أن يدرس ويعتبر ويتجه اتجاها قويما.

إنه لم يعط اليهود قوة، ولم يمدهم بسلاح، ولم يفش إليهم سرا من أسرار المسلمين، ولم يتواطأ معهم ضد قضية من قضايا المسلمين ومع ذلك كان ما كان من حزن، وكآبة، وقلق، ومرض، وعذاب...

فكيف بمن يخون وطنه، ويبيع دينه، ويتعاون مع أعداء وطنه ودينه، جهرا وعلانية، أو في السر والخفاء؟

أما هذا الصحابي الوفي الذي زلزل هذا الزلزال، والذي اهتمت به السماء فقالت في شأنه كلمتها، فهو : «أبو لبابة».

«إِن الله هو الذي كنت ترجوه في ذلك الوقت... وقد أقر به قلبك عند الشدة، وإِن أنكره لسانك عند النجاة...»

هذا الرجل ممن تعقد الخناصر على فضلهم، وتزهو المحافل والمجالس بأقوالهم وآرائهم، وتهفو القلوب إلى مجالستهم ومذاكرتهم.

كان قمة شامخة في العلم، وموسوعة كبيرة في المعرفة، قال الشهر ستاني فيه :

«وهو ذو علم غزير في الدين، وأدب كامل في الحكمة، وزهد بالغ في الدنيا، وورع تام عن الشهوات وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين إليه، ويفيض على الموالين له أسرار العلوم، ثم دخل العراق وأقام بها مدة، ما تعرض للإمامة قط، ولا نازع أحدا في الخلافة، ومن غرق في بحر المعرفة لم يطمع في شط، ومن تعلى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حط»[1].

وقد أخذ عنه نخبة كبيرة من العلماء لا في علوم الدين من تفسير وحديث وفقه وما إلى ذلك فحسب، ولكن أيضا في الفلسفة والرياضيات والكيمياء والطب والأدب، وحسبه دلالة على مكانته العلمية في مختلف المجالات أن جابر بن حيان الذي برع في الكيمياء خاصة كان من تلامذته، وأن الإمامين العظيمين مالكا وأبا حنيفة قد أخذا عنه، وأن عدد المنتمين إلى مدرسته العلمية بالمدينة المنورة يتجاوز عددهم الأربعة آلاف من أهل العراق والحجاز والشام وخراسان وغيرها.

---

(1) الملل والنحل، ص125، ط. أوروبا.

واشتهر الإمام إلى ذلك كله بحدة الذهن، وقوة الحجة، وشجاعة القلب، وله مواقف رائعة في ردع الملاحدة، وإخراص ألسنة الزنادقة، وإقناعهم بالدليل العقلي والحجة الدامغة، وكان منهاجه الفكري في إقناع المنكرين لوجود الله تعالى يقوم على مخاطبة العقل، وإثارة الوجدان، ولفت النظر إلى الحقيقة في وضوح وسهولة وهدوء، لا على أقضية المنطق الجافة، والمناقشات الفلسفية، والأحاجي والألغاز.

جادله بعض الزنادقة يوما في وجود الله فقال رضي الله عنه :

هل ركبت البحر؟ قال: نعم.

قال : هل رأيت أهواله؟ قال : بلى.

هاجت يوما رياح هائلة فكسرت السفن.. أغرقت الملاحين فتعلقت أنا ببعض ألواحها، ثم ذهب عني ذلك اللوح فإذا أنا مدفوع بتلاطم الأمواج حتى دفعت إلى الساحل :

فقال الإمام العالم : قد كان اعتمادك من قبل على السفينة والملاح ثم على اللوح حتى ينجيك، فلما ذهبت هذه الأشياء عنك هل أسلمت نفسك للهلاك؟ أم كنت ترجو السلامة بعد؟

قال الزنديق : بل رجوت السلامة!!

قال الإمام : ممن كنت ترجوها؟ فسكت الزنديق.

فقال الإمام العالم : إن الله هو الذي كنت ترجوه في ذلك الوقت، وقد أقر به قلبك عند الشدة، وإن أنكره لسانك عند النجاة، وهو الذي أنجاك من الغرق. قال تعالى : «**وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً**».

فأسلم الزنديق وصار من جنود العقيدة، وحماة الإسلام وللإمام العظيم حكم وأدعية وآراء تصور النفس الرافضة للخوف من غير الله، والطمع في غيره، والاستسلام للمصائب والشدائد والنكبات.

ومما ورد عنه قوله: «عجبت لمن ابتلى بالضر كيف يذهب عنه أن يقول: «رَبِّ إِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»، والله يقول: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ»، وعجبت لمن ابتلى بالغم كيف يذهب عنه أن يقول: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» والله يقول: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي المُؤْمِنِينَ»، وعجبت لمن خاف شيئا كيف يذهب عنه أن يقول: «حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ»، والله يقول: «فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ»، وعجبت لمن مكر به كيف يذهب عنه أن يقول: «وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّه إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ» والله يقول: «فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا» وعجبت لمن أنعم عليه بنعمة خاف زوالها كيف يذهب عنه أن يقول: «مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّه» والله يقول: «وَلَوْ لاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ».

ومن أقواله أيضا: «إن الله تعالى أراد بنا شيئا، وأراد منا شيئا، فما أراده بنا طواه عنا، وما أراده منا أظهره لنا، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا؟»[1].

ومنها قوله أيضا: «اللهم لك الحمد إن أطعتك، ولك الحجة إن عصيتك، لا صنع لي ولا لغيري في إحسان، ولا حجة لي ولا لغيري في إساءة».

---

(1) انظر ضحى الإسلام. ومروج الذهب 166/2. والملل والنحل.

وظل الإمام المؤمن في المدينة المنورة ينشر العلم، ويبني العقول، ويربى النفوس، ويهذب الأخلاق، ويحارب الضلال والفساد، ويقوي الأمل في لحظات الشدة وساعات الخطر، ويمسح بالقرآن الكريم على قلوب المؤمنين فتعود إليهم السكينة والطمأنينة فيمضون على الجادة بثبات ويقين من وعد الله بنصره وجزائه.

ظل الإمام الصادق على هذا السلوك القويم، والمواجهة البناءة حتى توفي سنة 148هـ ودفن في البقيع وأنشد فيه تلميذه الشاعر أبو هريرة العجلي :

**أقـــول وقـــد راحـــوا بـــه يحملونـــه**
**عـــلى كاهـــل مـــن حـــامليه وعاتـــق**
**أتـــدرون مـــاذا تحملـــون إلى الثـــرى**
**ثبيـــرا ثـــوى مـــن راس عليـــاء شاهـــق**
**غـــداة حثـــا الحـــاثون فـــوق ضريحـــه**
**تـــرابـــا وأولـــى كـــان فـــوق المفـــارق**

وبعد، فقد أمضينا هذه الرحلة القصيرة الممتعة مع من رفض حياة الراحة والدعة والبذخ، وعاش حياة كلها جهاد ونشاط وقناعة، وأبى أن يكون إلا صفحة مشرقة من تاريخ المسلمين الأولين الذين صنعتهم العقيدة الصحيحة والقيادة المثالية، قيادة النبي والخلفاء الراشدين من بعده.

إنها رحلة مع الإمام جعفر الصادق، رضي الله عنه...

«لن أدع الإسلام لشيء.. وسأحيا به وأموت عليه».

هذا البطل المؤمن، والمسلم الصادق، من الرعيل الأول، وواحد من تلامذة المدرسة المحمدية العارفين. أسلم قديما، يقال أنه رابع المسلمين، وتقول روايات أخرى أنه كان خامسهم، وهذا القول أرجح الأقوال، بحيث لم يسبقه إلى الإسلام إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، ويزيد بن حارثة، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عن الجميع، وهو أول من كتب بسم الله الرحمن الرحيم كما روى ذلك ابراهيم بن عقبة [1].

وقد عاش في مكة قبل البعثة المحمدية في أعظم بيوتها شابا مخطوب الود، مهوى القلوب، مثار إعجاب المجلس، يتمناه الجميع، صديقا، أو صهرا، أو مصاحبا، ولكن الشاب المحبوب لم يكن يرضى عن تلك الحياة بالرغم من وداعتها ورخائها وجمالها، بل كان يحس من أعماقه أنه خلق لحياة أخرى، ولأهداف يجب تحقيقها، ولكنه لم يدر ماهي تلك الحياة التي يطمح إليها، ولا تلك الأهداف التي يستشرف إليها. وهذا ما كان يحيره ويشغله!!

وظل الشاب على هذه الحيرة إلى أن كان ذات يوم، وقد ظهرت الدعوة المحمدية، وعرف خبر الإسلام، وبدأت مكة ترهف السمع للنبأ، ولكن الشاب الذي يهفو إلى معرفة هذا الأمر العظيم لم يستطع أن يقترب من مجلس النبي، خوفا من قومه، ورهبة من أبيه، وبدأ الصراع العنيف في أعماقه، إنه يفكر فيما يدعو إليه محمد ﷺ فيراه حقا وصدقا وطريقا واضح المعالم إلى الحياة التي تتشوف إليها نفسه. ويفكر فيما عليه

---

(1) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج2، ص421.

الجاهلية فيراها باطلا وإفكا وظلما وبهتانا، وطريقا إلى الضلال والضياع، ولكن كيف الخلاص وأين الطريق؟

وبينما هو على ذلك إذ رأى في المنام أنه وقف به على شفير النار فذكر من شعتها وشدتها ما الله أعلم به، وكأن أباه من خلفه يدفعه نحوها بكلتا يديه ويريد أن يطرحه فيها، وإذا بمحمد ﷺ يقبل ويجذبه من إزاره فينقذه من النار.

وفي صباح ليلة الرؤيا اتجه إلى بيت أبي بكر الصديق وقص عليه ما رأى، فقال له: «إنه الخير أريد لك، وهذا رسول الله فاتبعه فإن الإسلام حاجزك من النار، وأبوك واقع فيها».

وخرج الفتى المؤمن يبحث عن الرسول ﷺ في لهفة الظامىء حتى لقيه فقال له: يا محمد. إلى من تدعو؟ فقال: أدعوك إلى الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، ولا يدري من عبده ممن لم يعبده.

وفي وضوح واقتناع أعلن الفتى إسلامه، ولم يمض إلا وقت قصير حتى أصبحت مكة تتحدث عن إسلامه، وتراه يتابع الرسول في خطواته، وينفذ كل تعاليمه.

وكان والده غائبا عن مكة وقت إسلامه ولذلك سكت قومه عنه تاركين أمره إلى أبيه عند عودته، فما إن عاد حتى خف إليه الناس بالخبر، فهاج وثار، وأرسل من يبحثون عنه، فلما أتوا به أباه سبه وبكته وضربه بمقرعة حتى كسرها على رأسه، ثم جرى بينهما حوار عنيف قاس يقول فيه الوالد:

اتبعت محمدا وأصحابه، وأنت ترى خلافه قومه وما جاء به من عيب آلهتهم وعيب من مضى من آبائهم..

ويرد الابن المؤمن في شجاعة وصراحة: قد والله تبعته على ما جاء به.

فيشتد غضب الوالد ويحس كأن صاعقة وقعت على رأسه ويقول : اذهب يا لكع حيث شئت والله لأمنعنك القوت.

ويقول الابن المطمئن بالعقيدة، الثابت بالإيمان، الذي استبدل والده وما عنده، بالله تعالى وما عنده:

إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به...

وضاق الوالد من هذه المواجهة العنيفة الصارمة، ومن هذا الموقف العنيد، فأخرجه وقال لبنيه : لا يكلمه أحد منكم إلا صنعت به ما صنعت به.

وتقول روايات لأهل السير والتاريخ أن الوالد عندما ضاق بإبنه صرخ في أتباعه بأن يلقوا به في حجرة مظلمة كان أعدها لتأديب عبيده. وتلاحقت مراحل التعذيب الجهنمي على الفتى المؤمن، فمنع من الطعام والماء، وضرب وشتم، ثم طرح على صخور مكة ثلاثة أيام تحت الشمس المحرقة عله يكفر بالإسلام ويعود إلى دين الأباء والأجداد، ولكن الفتى المؤمن كان يواجه كل ذلك بإيمان قوي، وعقيدة راسخة، وإرادة فولاذية، ورفض صارم للماضي المظلم، ماضي الشرك والوثنية، وماضي الضلال والعمى والتيه.

وكانت عبارته الخالدة التي يعبر بها عن رفضه الجازم البات «والله إنه لصادق - يقصد الرسول - وإني به لمؤمن».

وجاءه أبوه بعد أيام من التعذيب فواجهه بنفس العبارة الرافضة مضيفا إليها قوله :

«لن أدع الإسلام لشيء... وسأحيا به وأموت عليه»

فعندئذ يئس من ولده ورأى أنه يحاول المحال فأمر بطرده من داره وتجريده من كل أمواله وتركه للضياع، ومقاطعته كلية بحيث لا يعمل عند أحد ولا يتعامل معه أحد.

ومع هذا كله ظل الرجل المؤمن، والمسلم الصادق صابرا محتسبا أجره عند الله، موقنا بأن كل ما يلاقيه سهل هين في سبيل الإسلام.

وتمضي الأيام والفتى المؤمن لا يتزعزع إيمانه، ولا تضعف عقيدته، ولا يكترث بشيء يصيبه أو يؤذيه ما دام الله معه حتى جاء وقت الهجرة الثانية إلى الحبشة فأمره الرسول ﷺ أن يكون ضمن المهاجرين، ويظل في الغربة لا يعذبه سوى بعده عن الرسول كما كان يحدث أصحابه حتى جاء هو ومن معه من المسلمين أمر من الرسول ﷺ بالعودة إلى المدينة ويلقى النبي في شوق وتعطش، ويلازمه في حرب وسلم، ويشترك معه في كل الغزوات التي غزاها حتى أنه ﷺ اختاره ليوليه على اليمن بعد أن استقر بها الأمر للمسلمين.

ولكنه لم يكد يباشر عمله حتى جاءه نبأ انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى.

ولما تولى أبو بكر ﷺ الخلافة طلب المؤمن الصادق أن يحدد مكانته من الجهاد في سبيل الله ورفض أن يكون أميرا للجيش وأصر أن يكون جنديا فحسب..

ويودع الصديق جيش الشام، ويودع المؤمن البطل، ويطلب من شرحبيل قائده أن لا يقضي أمرا إلا بعد عرضه على أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، والبطل المؤمن وقال فيه بالخصوص:

«انظره.. فاعرف له من الحق عليك مثل ما كنت تحب أنه يعرف من الحق لك لو كنت مكانه.. فإنك لتعرف مكانته في الإسلام».

وينطلق جيش الشام في صدق العزيمة، وقوة الإيمان، ويصل إلى مواقعه، ويتلاحم الجيشان في معركة ضارية، ويبدي المسلمون ضروبا من الشجاعة والتضحية ويشاهدون البطل المتواضع يقاتل باستبسال نادر وشجاعة خارقة، وإقدام من يرغب في الشهادة.

حتى كانت موقعة مرج الصفر، فقاتل البطل المؤمن كما لم يقاتل في حياته، ولا حظ المسلمون على محياه إشراقة الشهادة تتهلل، وعلى ثغره بسمة الرضى والفرح تتراقص، وسمعوه يدعوهم إلى المسارعة في لقاء الحبيب رسول الله ﷺ.

وانتهت المعركة. ووقف المسلمون على الشهداء، فكان البطل المؤمن واحدا منهم.

وبذلك انتهت حياة خامس المسلمين، وأحد تلامذة الرسول الأوائل، والمجاهد البطل الذي كان طوال حياته أقوى من الخوف والفقر والموت.

خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه.

«كان من دراري النجوم علما وتقوى، وزهدا وورعا، وعفة ورقة، وفقها ومعرفة، يجمع مجلسه ضروبا من الناس...».

خطب الرسول ﷺ قبل وفاته خطبة أنذر فيها المسلمين بخطر التحول في سيرهم، والانحراف عن الجادة القويمة التي كانوا عليها في العهد النبوي الزاهر وقال : «ما الفقر أخشى عليكم! ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم، فتتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»[1].

وقد تحقق هذا الخطر الذي تخوفه الرسول ﷺ على أمته وبلغ حده البعيد في عهد بني أمية، ولكن الله تعالى لطف بهذه الأمة إذ قيظ لمواجهة هذا الخطر ومعارضته رجالا رباهم القرآن على الصدق والوفاء، والإخلاص لدين الله، وعلمهم أن حياة الخضوع والخنوع لغير الله تعالى موت وضياع، وأن طريق الجنة محفوف بالمكاره والمتاعب والمشاق، فمن شاء رضى الله تعالى ونعيمه في الآخرة فليجاهد النفس والشيطان وليصلح الفساد، وليعارض دعاته وهواته مهما لقي في كل ذلك من مقاومة وإذاية، وليرفض في سبيل الحق كل مهادنة أو مساومة أو تلكؤ، فالرزق بيد الله، والعمر بيد الله والموت في سبيل الله وفي سبيل الحق حياة وشرف، وبرهان على علو النفس، وكرم المحتد ووضوح الرؤية، وإيثار الحق على الباطل، والسلب على الإيجاب.

وهذه الصفات والخصائص كلها هي مميزات هؤلاء الرجال الذين هبوا لمعارضة التيار الجارف الذي هدد المسلمين وما يزال يهددهم.

---

(١) صحيح المسلم. كتاب الزهد.

لقد وقفوا في وجه المادية الجارفة التي تخوفها الرسول ﷺ وقاوموها بكل ما أوتوا من قوى ومواهب، واستطاعوا أن يمنعوا عددا كبيرا من المسلمين أن تجرفهم وتستبد بهم وتستعبدهم.

وإذا كانوا لم يستطيعوا أن يوقفوا التيار لقوته الجارفة، وطغيانه الذي لا يحتمل، فقد استطاعوا أن يخففوا منه، ويقللوا من خطورته، وينقذوا من لجته من استمع إليهم واهتدى بهديهم وسار على دربهم.

إن لهؤلاء الدعاة الأبطال فضلا سيظل التاريخ يذكره لهم بالإعجاب والتقدير لأنهم كانوا السبب القوي في بقاء الأمة الإسلامية أمة ذات عقيدة ودين وأخلاق فاضلة خاصة، وطابع خاص تمتاز به بين الأمم.

ومن الدعاة المصلحين، والأبطال المجاهدين الذين انبثوا في الحواضر الإسلامية يقومون بالدعوة والتوجيه ويقاومون الظلم والانحراف ويحاولون أن يحافظوا على خصائص هذه الأمة، ويرفعوا من مكانتها الروحية والخلقية حتى لا تضيع أمام المادية الجارفة، هذا الإمام العظيم، والعالم الحجة والمنارة الهادية، والموسوعة الفذة في التفسير والحديث، والشجاع البطل الذي لا يخشى في الله لومة لائم، ويواجه الطغاة والجبابرة مرفوع الرأس، مرهوب الجانب، قوي الكلمة.

وصفه ثابت بن قرة ـ كما نقل عنه أبو حيان التوحيدي فقال :

«كان من دراري النجوم علما وتقوى، وزهدا وورعا، وعفة ورقة، وفقها ومعرفة، يجمع مجلسه ضروبا من الناس، هذا يأخذ عنه الحديث، وهذا يلقف منه التأويل، وهذا يسمع منه الحلال والحرام، وهذا يحكي له

الفتيا، وهذا يتعلم الحكم والقضاء، وهذا يسمع الوعظ، وهو في جميع ذلك كالبحر اللجاج تدفقا، وكالسراج الوهاج تألقا، ولا تنس مواقفه ومشاهده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الأمراء وأشباه الأمراء بالكلام الفصل واللفظ الجزل... وكان صاحب عاطفة قوية، وروح ملتهبة، وكان من كبار المخلصين... وكان يؤمن بما يقوله ويعمل بما يعتقده، وكان الذي يقول يخرج من القلب فيدخل في القلب» انتهى قول ثابت.

ولد هذا الإمام سنة 21 للهجرة وأبوه ياسر مولى زيد بن ثابت صاحب رسول الله ﷺ وكاتب الوحي، وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوج الرسول ﷺ نشأ في بيتها ولقي جماعة كثيرة من الصحابة الكرام وأخذ عنهم.

وكان الإمام العظيم يشاهد افتراس المادية للمجتمع في غير هوادة واستعباد الشهوات واللذات لنفوس كان الأولى بها أن تهتدي إلى جادة الاعتدال والاتزان، فواجه ذلك بمواعظ ترتج لها القلوب، وتقشعر لها الأبدان، وتكشف الغطاء عن العيون، وتعد النفوس للرفض الصارم البات.

فمن مواعظه القوية الرافضة قوله يذكر عهد الصحابة ويصف المؤمن «هيهات هيهات!! أهلك الناس الأماني : قول بلا عمل، ومعرفة بغير صبر، وإيمان بلا يقين، مالي أرى رجالا ولا أرى عقولا! وأسمع حسيسا ولا أرى أنيسا!! دخل القوم والله ثم خرجوا، وعرفوا ثم أنكروا، وحرموا ثم استحلوا، إنما دين أحدكم لعقة على لسانه إذا سئل : أمؤمن أنت بيوم الحساب؟ قال : نعم. كذب ومالك يوم الدين؛ إن من أخلاق المؤمن قوة في دين، وإيمانا في يقين، وعلما في حلم، وحلما بعلم، وكيسا

في رفق، وتحملا في فاقة، وقصدا في غنى، وشفقة في نفقة، ورحمة لمجهود، وعطاء في الحقوق، وإنصافا في الاستقامة، لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم في مساعدة من يحب، لا يهمز، ولا يغمز، ولا يلمز، ولا يلغو، ولا يلهو، ولا يلعب، ولا يمشي بالنميمة، ولا يتبع ما ليس له، ولا يجحد الحق الذي عليه، ولا يتجاوز في العذر، ولا يشمت بالفجيعة إن حلت بغيره، ولا يسر بالمعصية إذا نزلت بسواه».

وروى التاريخ من أخبار شجاعة هذا الإمام، وقوة إيمانه، وحبه لنصرة الحق ما يرفع مكانته بين الدعاة المصلحين إلى القمة الشامخة فمنها ما رواه المؤرخ الكبير ابن خلكان حيث قال :

لما ولى عمر بن هبيرة الفزاري العراق وأضيفت إليه خراسان وذلك في أيام يزيد بن عبد الملك ـ استدعى هذا الإمام ومحمد بن سيرين والشعبي فقال لهم :

إن يزيد خليفة الله، استخلفه على عباده، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة، وقد ولاني ماترون، فيكتب إلي بالأمر من أمره فأقلده ما تقلده من ذلك الأمر، فما ترون؟

فقال ابن سيرين والشعبي قولا فيه تقية. قال ابن هبيرة : ما تقول أيها الإمام؟

فانطلق الإمام في صراحته ووضوحه وشجاعته يقول :

يا ابن هبيرة! خف الله في يزيد، ولا تخف يزيد في الله، إن الله يمنعك من يزيد، وإن يزيد لا يمنعك من الله، وأوشك أن يبعث إليك ملكا فيزيلك

عن سريرك، ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ثم لا ينجيك إلا عملك. يا ابن هبيرة! إن تعص الله فإنما جعل الله هذا السلطان ناصرا لدين الله وعباده، فلا تركبن دين الله وعباده بسلطان الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

فأجازهم ابن هبيرة وأضعف جائزة الحسن.

وهكذا عاش الإمام العظيم يدافع عن العقيدة، ويهدي إلى الحق، ويغير المنكر، ويحمل في صدره ثورة تؤججها كلمة الله ودعوة محمد. ثورة ضد الظلم والظالمين، والعبث والعابثين، وضد كل انحراف واستهتار وانحلال.

إنها ثورة الرفض الصارم الدائم لكل خضوع لغير الله وكل سير على غير الجادة القويمة، وكل تأرجح أو تردد أو إحجام أمام الحق...

وتوفي العالم المجاهد سنة 110 هـ، وساد القلوب حزن عميق وسار وراء نعشه خلق عظيم ولسان كل واحد منهم ينشد :

**كنت الضيـــاء لناظـري      فعمى عليك الناظـــر**

**من شاء بعدك فليمـــت      فعليك كنت أحـــاذر**

أما من هو هذا الإمام فإنه التابعي الجليل :

«الحسن البصري»

«رفض المثول بين يدي الخليفة وقال للوزير: قل له: العلم يزار ولا يزور!!»

عندما نتتبع حياة هذا الرجل بالدراسة والتأمل نتعجب من بعض الظواهر التي تصادفنا بل نندهش أحيانا ونعجز عن التعليل والبحث عن الأسباب، فلا يسعنا إلا أن نقتنع في إذعان أن هناك صنفا من الناس يختارهم الله ويختصهم بما يشاء من مواهب ومعارف، تميزهم عن غيرهم من عامة الناس أو أكثرهم، كما يختص الزهور في الغالبات بالجمال والطيب.

ولد في ربيع الأنور سنة 93 هـ بذي المروة من ضواحي المدينة ونشأ في أسرة امتازت بانقطاع معظم أفرادها إلى طلب العلم ورواية الحديث، فبدأ تعلمه مبكرا، وحفظ القرآن الكريم في صباه على عادة أكثر الأسر الإسلامية، وأحكم أداءه على نافع أحد القراء السبعة وإمام أهل المدينة، ثم أقبل على مجالس العلماء، فدرس في شغف منقطع النظير كل العلوم والفنون التي يستعان بها على فهم القرآن الكريم فارتوى عقله، وتفتحت عبقريته، واتسعت معارفه، وتبوأ في مدة قصيرة مكانة مرموقة كانت مثار إعجاب المفكرين في عصره والعصور المتعاقبة بعده.

ومن يصدق أن هذا الفتى قد أخذ العلم عن تسعمائة شيخ؟

منهم ثلاثمائة من التابعين وستمائة من تابعي التابعين؟

ومعنى هذا أنه أدرك قيمة العلم وانقطع له بكليته، وأنه رفض ما عدا العلم من مال، وعقار، وقصور، مما يعد عند أكثر الناس كل شيء في هذه الحياة، ويعد عند هذا الرجل شيئا زائفا تافها يمكن الحصول عليه

بالعلم. أما العلم فلا سبيل إليه بحطام الدنيا لمن يحصل عليه بالجد والكد والسهر والأسفار.

ومن يصق أيضا أن هذا الرجل يسمع أحاديث الرسول ﷺ عن عدد من علماء الحديث فيحفظها كلها عن ظهر قلب دون أ ن يختلط عليه حديث بحديث؟ وقد حكى عن نفسه فقال :

«كنت آتي سعيد بن المسيب، وعروة، والقاسم، وأبا سلمة، وحمادا، وسالما، فأدور عليهم فأسمع من كل واحد من الخمسين حديثا إلى المائة، ثم انصرف وقد حفظته كله من غير أن أخلط حديث هذا بحديث هذا»[1]

وكان شديد التحري في مروياته فلا يقبل ما يروى إلا بعد التروي والنقد والتفحيص، وفي هذا يقول :

«لقد أدركت سبعين ممن يقولون: قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين، مشيرا إلى مسجد الرسول فما أخذت عنهم شيئا وأن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أمينا إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن»[2].

وجلس على كرسي الأستاذية وسنه سبع عشرة سنة فأتقن وأجاد، وأفاض وأفاد، وأصبح شيوخه تلامذة له، والتابعون مريدين عنده، وأصبحت حلقاته العلمية تزدحم بمختلف الطلاب والعلماء والأعيان والوجهاءالذين يفدون عليه من مختلف الأصقاع والأقاليم كل يريدون الانتهال والارتواء، وضاق المسجد بالرواد والركبان ففاض بهم إلى

(1) الاجتهاد والتجديد في التشريع الإسلامي، تأليف جماعة من التونسيين.

(2) المصدر نفسه.

عرصات المدينة ورحابها الفسيحة حتى ضاقت بهم هي الأخرى وبذلك انتعشت أسواقها، وراجت سلعتها وكثرت خيراتها، وعم الرخاء والازدهار.

كل ذلك بسبب هذا الرجل الذي رفض الدنيا فجاءته مطيعة خادمة.

ومن مثل هذ العالم الجليل إذا أراد أن يحدث الناس؟

ومن مثل هذا التقي الورع عندما يدخل مسجد الرسول ﷺ وهو يعج بالجماهير الغفيرة التي تنتظر قدومه كأنه القمر المنير في الليلة المظلمة، والغيث المنقذ أيام المحن والجفاف؟

روى ابن أبي أويس قال: كان إذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته وتمكن في الجلوس بوقار وهيبة ثم حدث. فقيل له في ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديث النبي ﷺ ولا أحدث به إلا على طهارة متمكنا».

«وكان يكره أن يحدث في الطريق وهو قائم أو مستعجل، فقال: أحب أن يفهم ما أحدث به عن رسول الله ﷺ»[1].

ولعل أغرب من كل هذا أنه كان مرة يلقي على طلبته فصولا من الحديث النبوي فلدغته عقرب عدة مرات فاصفر وجهه ومع ذلك لم يتململ ولم يتأوه ولم يقطع سير القراءة إجلالا للحديث الشريف وتأدبا له.

وكان يجل العلم، ويرفض أن يذل ويهان، وله في ذلك أقوال رائعة، ومواقف كريمة مشرفة.

---

(1) صفوة الصفوة للإمام ابن الجوزي، ج2، ص178.

روى أن الخليفة هارون الرشيد عندما قدم المدينة وجه إليه من فوره وزيره البرمكي وطلب منه الحظور ليلقي عليه دروسا في الحديث ولكن العالم المؤمن، رفض المثول بين يدي الخليفة وقال للوزير : «قل له، العلم يزار ولا يزور» ولما وصل الرشيد الخبر كرر عليه الدعوة، وقبل أن تصله، دخل العالم الرافض وقال : «يا أمير المؤمنين إن الله رفعك مكانا عليا، فلا تكن أول من يضع عز العلم فيضع الله عزك».

فنهض الرشيد وذهب لحينه إلى منزل العالم المؤمن وجلسا معا على المنصة فلما بدأ قراءة الحديث التفت إلى الخليفة وقال له : «من تواضع لله رفعه» فنزل الخليفة وجلس مع الجالسين كواحد منهم وبعد انتهاء العالم من درس الحديث طلب منه الخليفة أن يصاحبه إلى العراق ليحمل الناس على اتباع مذهبه، فرفض الرجل العالم وقال :

«يا أمير المؤمنين إن أصحاب النبي ﷺ تفرقوا بعده في الأمصار وحدثوا بروايات مختلفة والرسول عليه السلام قال: «اختلاف أمتي رحمة».

وكان الرجل متواضعا منصفا يخطئ نفسه إذا رأى غيره هو المصيب، ويعترف بالحق، وكان يقول لا أدري بلا تحرج إذا سئل عن شيء لا يدريه.

روى أهل التاريخ أن الإمام الشافعي كان تلميذا له يحضر عليه الدروس، وكان العالم المؤمن يحبه ويقربه منه، وفي يوم سأله سائل وقال له :

«أنا تاجر طيور وبعت قمريا لرجل وبعد يومين جاءني ورد إلي القمري مدعيا بأنه لا يغني فحلفت له بالطلاق أن القمري لا يكف عن الغناء ليلا ولا نهارا، فقال له العالم المحدث :

«زوجتك طالق ولا سبيل لك عليها»!!

فقفز الشافعي وقال للتاجر :

«غناء قمريك أكثر أم سكوته»؟ قال : غناؤه...

قال الشافعي : «زوجتك ليست بطالق ولك سبيل عليها».

قال العالم المحدث متعجبا مشدوها مما سمع :

من أين لك يا غلام هذه الفتيا؟».

قال الشافعي: حدثتني أنت عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أم سلمة أن فاطمة بنت قيس قالت : يا رسول الله، خطبني معاوية وأبو الجهم فأيهما أتزوج..؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

أما معاوية فصعلوك لا مال له... وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وقد علم الرسول ﷺ أن أبا الجهم يشتغل ويأكل وينام ولكنه قال: «لا يضع عصاه على عاتقه» على سبيل المجاز، والعرب تجعل أكثر العملين كمداومته، ولما كان غناء القمري أكثر من سكوته جعلته كغنائه دائما قياسا على ما ذكرت لي من الحديث.

فاندهش العالم المؤمن والمحدث الكبير من شدة ذكاء هذا الذي ما يزال يدرس وقال له : «اذهب فقد أجزنا لك الفتيا».

قال ذلك معترفا للشاب بفضله ومكانته العلمية وقدرته على الفتيا [1].

وسئل عن أربعين مسألة فأجاب عن أربع ورفض الإجابة عن ست وثلاثين لأنه غير موقن بالإجابة، فوجب التحري والتروي والتأمل وبذلك أرضى ربه وضميره، فلا يهمه بعد ذلك أن يقال، كيف يقول لا أدري وهو إمام المحدثين، وأستاذ الفقهاء.

---

(1) منبر الإسلام العدد الأول السنة 27 مارس 1969.

وسعى به إلى جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهما وهو ابن عم جعفر المنصور وقالوا له : «إنه لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء، فغضب جعفر، ودعا به وجرده وضربه بالسياط، ومدت يده حتى انخلعت كتفه، وارتكب منه أمرا عظيما، فلم يزل بعد ذلك الضرب في علو ورفعة، وكأنما كانت تلك السياط حليا حلى به[1].

لله در هذا الرجل العظيم وهذا المؤمن الصادق الذي رفض الدنيا وأعرض عن كل مغرياتها وشهواتها ومفاتنها فجاءته ذليلة وأقبلت عليه بحذافيرها خادمة مطيعة.

ولله در هذا العالم القرآني، والفقيه المحدث الذي رفض الراحة والكسل والخمول، وانكب على العلم ينهل ويكدح فتبوأ القمة الشامخة واحتل المكانة الفذة فسار علمه وصِيتُه مسير الشمس في أنحاء المعمورة، ورفض مع ذلك كل أنواع الظهور والفخفخة، ورفض الرضوخ والانقياد إلا لله العلي الكبير.

وتوفي بطل التاريخ، وإمام العلماء، وعملاق الإسلام عن تسعين عاما فبكاه الناس من أعينهم وقلوبهم ورثوه بشعرهم ونثرهم، وكان ذلك صبيحة يوم 14 من شهر ربيع الأول سنة (179 هـ) بالمدينة المنورة ودفن بالبقيع جوار ابراهيم نجل الرسول ﷺ.

إلى هنا قد عرفت ـ قارئي الكريم ـ قيمة هذا الرجل العلمية ومكانته بين الرافضين عبر التاريخ، ودوره الضخم في خدمة الكتاب والسنة ونشرهما في أنحاء الدنيا، وقد تكون أيضا قد عرفت من خلال صفاته ومواقفه من هو... وإذا لم تعرفه فإنه إمام دار الهجرة

«مالك بن أنس»

---

(1) وفيات الأعيان لابن خلكان.

(ياقوم لا تخدعوا نفوسكم، ولا تظنوا إن الاسبان إذا عاهدوكم يفون، إن الموت أقل ماتخشون...)

ظلت الأندلس ثمانية قرون تشع على العالم بنور العلم والحضارة والهدى، وتحتل مكانة السيد المرهوب الجانب، المخطوب الود.

وكان هذا يوم كانت القلوب تسطع بنور الاسلام، ولما انطفأ هذا النور، ضل الهداة، وتعادت الاخوة، وتحاربت الجيرة، وتنكر القريب للقريب، فتوزعت القوى، وانقسم ملك عبد الرحمن الناصر الى دويلات تتنافس في الحكم، وتتخاذل في الشدة، وتتواطأ مع العدو، في الوقت الذي كانت فيه اسبانيا النصرانية تتقارب، وتتجاذب، وتتعاون حتى اتحدت ممالكها الخمس في مملكة قشتالة ثم أخذت تغير على المسلمين مستعينة بالخونة المأجورين، فكانت قواعدهم وثغورهم ومدنهم تسقط تباعا حتى لم يبق في أيدي المسلمين الا غرناطة عروس الاندلس.

وكان الملك في هذه المدينة هو أبو عبد الله محمد، الذي عرف بضعف العزيمة وقصر النظر، وبرودة الوطنية، وخمول الهمة، فلم يكد يعلم أن (فرديناند) الخامس ملك قشتالة قد أخذ يرنو بعينيه إلى غرناطة، ويخطط للإستيلاء عليها وهي آخر معقل للإسلام، حتى أشفق على نفسه، وأخذ يصانعه، ويعترف بطاعته، وأرسل إلى العدو سرا من يفاوضه في تسليم المملكة على أن يقطعه بعض الأرض ليحكمها تحت لوائه وأبرمت المعاهدة في الظلام فحل موعد التسليم فعارض جماعة من فرسان غرناطة، رفضوا الذل والهوان، وأبوا أن يستسلموا للعدو الأهوج مهما كانت قوته.

وكان على رأس هؤلاء المغاوير، أولي الهمة والشهامة فارس بطل من سلائل الملوك، وكان مثار إعجاب الناس ومضرب أمثالهم وخاصة منهم الشباب، وكان فذا في أدب اللسان، وفن السيف في المواجهات، وكانت مجالس الفتيان والفتيات لا تخلو من التندر بمغامراته الحربية والغرامية سواء عند المسلمين أو عند النصارى.

رأى هذا البطل أن يواجه الملك الهلوع، والضعيف المهزوز بما يضطرم في قلبه من أفكار وخواطر فتقدم إليه بشجاعة ونخوة فقال له:

«يا ملك المسلمين قل لملك النصارى : إن العربي لا يقبل الحيف، ما دام يحمل السيف، وأن الأبي الحر يفضل أن يكون له قبر في أنقاض غرناطة على أن يكون له قصر في رياض أندرش».

وأندرش هي مقر الإقطاعية التي رضي أبو عبد الله أن يعيش على ريعها في حمى فرديناند وإيزابيلا...

فلم يسع أبا عبد الله إلاأن يرضخ لحكم السادة والقادة فضرب بالمعاهدة عرض الحائط وتأهب للدفاع وأصبح الناس ذات يوم فإذا هم يرون في أودية (شنيل) ثمانين ألفا من جنود قشتالة يقصدون غرناطة ليحاصروها وتولى الشاب البطل قيادة الفرسان واضطرمت نار الحرب بين قشتالة تناصرها قوة وافرة الأهبة والعدة وغرناطة لا قوام لها إلا البأس والصبر والإيمان.

وكان لفروسية القائد الشاب حملات مظفرة، وصولات بطولية كانت من أمجد ما عرف في تاريخ المدن المحصورة ولكن القشتاليين أحكموا

الحصار على غرناطة وأهلكوا ما حولهامن الزرع وحالوا بينها وبين المدد من البحر والبر.

ودام الحصار الشديد سبعة أشهر، لاقى المسلمون فيه من الضيق والعسر والشدة ما يشيب الوليد، ويفتت الكبد، ولكنهم مع ذلك لم يستسلموا بل كانوا يقاومون ويظهرون من الشجاعة والإقدام ما يثير روعة العدو ودهشته وإعجابه.

ولما ضاقت الحال بالمسلمين وساء وضعهم، وكاد الصبر أن ينفذ تقدم حاكم المدينة إلى مجلس الحكم وقرر أن الدفاع لا جدوى منه فابتدره القائد البطل بقوله :

«إن نفوس المجاهدين الصابرين لا تعرف اليأس».

ثم قال لفرسانه في لهجة صارمة ترفض الذل والعار، وتستثير من الأعماق نخوة العروبة :

«لم يبق لنا من الأندلس كلها إلا الأرض التي نقف عليها فإذا فقدناها فقدنا الوطن والحرية».

ثم أمر ففتحت الأبواب وخرج بكتيبته الباسلة إلى لقاء العدو وحمل بهم على المحاصرين حملة رهيبة فكشفوهم عن المدينة بعد معركة كبيرة، وقتال شديد خضب فيه كل شبر من الأرض بدماء الفريقين.

ولكن المحاصرين عادوا فأطبقوا على المدينة من جديد واستمر القتال بعنف واستماتة أياما حتى ضعف المسلمون وساورهم اليأس وعبثا حاول القائد الشاب أن يحيي فيهم الأمل، ويرفع من معنوياتهم

المنهارة، ويواصل بهم الدفاع عن الوطن وألفى نفسه وحيدا في الميدان مع فرسانه الأبطال المخلصين.

وفي مساء ذلك اليوم عقد الملك في بهو الحمراء مجلسا من الفقهاء والزعماء والقادة بحثوا فيه الأمر على وجوهه المختلفة ثم أجمعوا على التسليم للعدو وهناك نهض القائد الشاب وانبرى للحديث في شجاعة ونخوة وأخذ يقول معارضا للاستسلام، ورافضا لذل الاستخذاء:

«يا قوم إن وسائلنا الدفاعية لم تنفد بعد، فما زلنا نملك الوسيلة التي تبطل المستحيل، وتصنع المعجزات وهي اليأس. فلنعمل على إثارة الشعب، ولنضع السلاح في يده، ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة، وإنه لخير لنا أن نحصي بين الذين ماتوا دفاعا عن غرناطة من أن نحصي بين الذين شهدوا تسليمها».

ولكن كلمة البطل مع قوتها وحرارتها لم تصادف هذه المرة هوى في النفوس لأنها خاطبت رجالا انطفأ الأمل في قلوبهم، واستودت الدنيا في أعينهم فلم تعد تجدي البلاغة ويفيد البيان.

وقلب الملك بصره في وجوه الوزراء والقادة فلم ير إلا الحزن والوجوم والذهول فصاح بأعلى صوته :

الله أكبر فلتكن إرادة الله. فردد القوم ما قال وبكوا إلا الفتى المغوار، والقائد البطل، والرافض لذل الاستسلام حتى وقد أحاط به الموت من كل جانب، فإنه قد ظل صامتا لا يتكلم شاخصا ببصره لا يطرف.

فلما رأى بعض الوزراء يخرجون لمفاوضة العدو، غلى الدم في جميع جسده وقال :

«يا قوم لا تخدعوا أنفسكم، ولا تظنوا أن الإسبان إذا عاهدوكم يفون، إن الموت أقل ما تخشون، وسترون إذا سلمتم أن مدينتنا تخرب وأموالنا تنهب، ونساءنا تستباح، ومساجدنا تدنس، ونواصينا تذل، وأجسامنا تساط، ودماءنا تراق، وبقيتنا تنفى، سترون كل ذلك وأفظع منه يا من تضنون بنفوسكم على الموت الكريم، أما أنا فوالله لن أراه».

ثم غادر المجلس واخترق (بهو الأسود) دون أن يرمق أحدا، أو ينبس بكلمة حتى دخل داره فلبس سلاحه وركب جواده متجها به إلى ظاهر غرناطة.

هذا ما تذكره الرواية العربية عن مصير هذا البطل الأندلسي الكبير. أما المؤرخ الإسباني (القس أنطونيو أجابيدا) فإنه يقول :

في عشية ذلك اليوم الذي خرج فيه فارس الأندلس على هذه الحال كانت كوكبة من الفرسان الإسبان يسيرون على نهر شنيل فرأوا في ضياء الغروب الشاحب فارسا مسلما يدنو وقد دججه السلاح من رأسه إلى قدمه وكان مغلقا حوذته، شاهرا رمحه، وكان جواده القوي قد غاص مثله في الحديد فاستوقفوه ليعرفوه، فوثب إلى وسطهم وطعن كبيرهم برمحه وانتزعه من سرجه وضرب به الأرض ثم انقض على الباقين وكانت ضرباته ثائرة قاتلة وكأنه لم يرد إلا أن يقتل وأن يسيل الدم، وكأنما يتوق إلى أن يقتل دون رغبة في أن يعيش، يهجم ولا يدافع، ويضرب ولا يتقي، حتى قتل أكثرهم.

ثم تناوشته السيوف من كل جهة فأصيب بجرح خطير ثم سقط جواده من تحته قتيلا بطعنة. فسقط البطل على الأرض مضرجا بدمه، فترجل الفرسان ليحيوه أو ليأسروه فجثا على ركبتيه واستل خنجره وأخذ يسدد ضربات قاصمة قاضية حتى خارت قواه، وخشي أن يقع أسيرا في يد الأعداء فارتد إلى الوراء وقذف بنفسه في النهر فغاص إلى الأعماق من ثقل دروعه [1].

ذلك ـ قارئي الكريم ـ بطل الأندلس العظيم الذي رفض الاستسلام، وأبى إلا أن يموت شريفا كريما.

ورفض أن يرى علم النصرانية يخفق فوق صرح الإسلام المنهار ودولة الإسلام تنتهي في الأندلس بعد ثمانية قرون من الحضارة والتمدن والازدهار.

إنها فروسية وبطولة، وإباء وشهامة، تتجلى في المسلم المؤمن :

«موسى بن أبي الغسان»

(١) من مراجعنا في هذا الفصل : (في ضوء الرسالة) للزيات. و(مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام) لمحمد عبد الله عنان.

«إن في جهنم حيات كالقلال، وعقارب كالبغال، تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته»

ما أعظم الإنسان وما أقواه حينما يسيطر عليه شعور بعظمة الحق وحده. وإحساس بوجوب نصرته والتضحية في سبيله.

وما أقربه إلى ربه وهو يرفض من حسابه واعتباره كل قوي وكل عال، وكل عظيم، ولا يهتم ولا ينشغل إلا بالله وحده، ولا يضع نصب عينيه إلا رضاه.

وكيفما يكون وضع هذا الإنسان ومركزه فإنه بهذا الشعور يقوى على كل قوي، ويعلو على كل عال،ويواجه الأعاصير العاتية دون خوف أو تردد.

ومثل هذا منتصر دائما، لأن الله تعالى يمده قوة وطاقة تتأبى على الخنوع والخضوع، وترفض الذل والهوان، وتقاوم التبعية في دفع ثوري عارم حتى تفتك حقها وتستقل به كما أراد الله لها.

وكم من أصنام تهاوت، أمام هذا الإنسان القوي الرافض، وكم من طغاة جبابرة ارتعدت فرائصهم عندما زأر هذا الإنسان المؤمن القوي أمامهم بكلمة صريحة واضحة، وحجة قوية دامغة دون خوف أو ضعف!

وما أكثر رواد الحق، وطلائع الثورة والتغيير، وعمالقة العقيدة والإيمان عبر التاريخ :

وعلى الطريق ومع هؤلاء المؤمنين الأقوياء نلتقي بأحد الأعلام التابعين، وهو عالم وزاهد وقدوة في السلوك والأخلاق، سمع ابن عباس وأبا هريرة رضي الله عنهما وروى عنه مجاهد وعمرو بن دينار، وكان فقيها جليل القدر نبيه الذكر.

كتب إلى عمر بن عبد العزيز عندما ولي الخلافة يقول له :

«إن أردت أن يكون عملك خيرا كله فاستعمل أهل الخير».

فقال عمر : كفى بها موعظة !!!

وقد حكى أن هشام بن عبد الملك قدم حاجا إلى بيت الله فلما دخل الحرم قال : أئتوني برجل من الصحابة.

فقيل : يا أمير المؤمنين قد تفانوا...

قال : فمن التابعين؟

فأتى بالتابعي العالم. فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم بأمرة المؤمنين ولم يكنه، وجلس إلى جانبه بغير أذنه.

وقال : كيف أنت يا هشام؟

فغضب من ذلك غضبا شديدا حتى هم بقتله. فقيل : يا أمير المؤمنين أنت في حرم الله وحرم رسوله ﷺ لا يمكن ذلك.

فقال له هشام :

ما حملك على ما صنعت؟

قال المؤمن القوي : وما صنعت؟

فاشتد غضبه له وغيظه، وقال :

خلعت نعليك بحاشية بساطي ولم تسلم علي بإمرة المؤمنين ولم تكنني، وجلست بإزائي بغير إذني وقلت : يا هشام كيف أنت؟

قال : أما خلع نعلي بحاشية بساطك فإني أخلعهما بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات فلا يعاتبني ولا يغضب علي...

وأما ما قلت : لم تسلم علي بإمرة المؤمنين فليس كل المؤمنين راضين بإمرتك فخفت أن أكون كاذبا!!

وأما ما قلت : لم تكنني فإن الله عز وجل سمى أنبياءه قال : يا داود، يا يحيى، يا عيسى، وكنى أعداءه فقال: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ».

وأما قولك : جلست بإزائي، فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول :

إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام!!!

فقال له هشام : عظني.

قال له المؤمن الصادق :

إني سمعت أمير المؤمنين رضي الله عنه يقول : إن في جهنم حيات كالقلال وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته...

ثم قام وخرج!!!

هذا موقف من مواقف هذا التابعي المؤمن الصادق الذي أبى عليه إخلاصه لدينه وعقيدته أن ينافق أو يجامل أو يتملق على حساب الحق!!!

وموقف آخر من مواقفه القوية الجريئة.

يرينا شجاعة هذا الرجل وصراحته في أبعد حدود الشجاعة والصراحة:

روى أن أبا جعفر المنصور استدعاه ذات يوم ومعه مالك بن أنس رضي الله عنهما.

فلما دخلا عليه أطرق ساعة ثم التفت إلى التابعي الشجاع وقال له :

حدثني عن أبيك؟

فقال : حدثني أبي أن أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في سلطانه فأدخل عليه الجور في حكمه!!!

فأمسك أبو جعفر ساعة، قال الإمام مالك رضي الله عنه :

فضممت ثيابي خوفا أن يصيبني دمه...

ثم قال له المنصور : ناولني تلك الدواة، ثلاث مرات، فلم يفعل. فقال له : لم لا تناولني؟ فقال: أخاف أن تكتب بها معصية فأكون قد شاركتك فيها، فلما سمع ذلك قال : قوما عني...

قال المؤمن الصادق: ذلك ما كنا نبغي.

قال مالك : فمازلت أعرف للرجل فضله من ذلك اليوم...

ومن أقواله رضي الله عنه : صاحب العقلاء تنسب إليهم وإن لم تكن منهم ولا تصاحب الجهال فتنسب إليهم وإن لم تكن منهم وأعلم أن لكل شيء غاية وغاية المرء حسن عقله[1].

وتوفي التابعي المؤمن، والصادق الوفي حاجا بمكة قبل يوم التروية بيوم وصلى عليه هشام بن عبد الملك وذلك سنة 106 هـ، وقيل سنة 104 هـ.

وقال بعض العلماء : مات بمكة فلم يتهيأ إخراج جنازته لكثرة الناس حتى وجه ابراهيم بن هشام المخزومي أمير مكة بالحرس فلقد رأيت عبد الله ابن الحسن بن علي أبي طالب رضي الله عنهم واضع السرير على كاهله، وقد سقطت قلنسوته كانت على رأسه ومزق رداؤه من خلفه[2].

ذلك ـ هو الزاهد القانع «طاووس بن كيسان» رضي الله عنه.

---

(1) وفي الكامل لابن الأثير أن هذا القول أوصاه به أبوه.

(2) عن الكامل لابن الأثير ـ وفيات الأعيان، لابن خلكان ـ العقد الفريد.

أقسمت أن أقضي الحياة مجاهـدا

والحـــق لي ولتـــابعي شعـــار

لا أحد يغتبط عن نعمة كمن رزق عقلا راجحا يهتدي به إلى الطريق السوي، ويسمو به إلى المثل العليا والغايات الكريمة، ويستضيء بنوره عندما تظلم الحياة في وجهه، وتنطمس العالم والحدود أمامه.

وليس أدل على ذلك من قول الرسول صلى الله عليه وسلم يوم أسلم خالد بن الوليد، رضي الله عنه: «الحمد لله الذي هداك... قد كنت أرى لك عقلا ورجوت أن لا يسلمك إلا لخير».

وعن ابن عباس رَضِيَ الله عَنْهُ قال: سألت عائشة رضي الله عنها، عن الرجل يقل قيامه، ويكثر رقاده، وآخر يكثر قيامه ويقل رقاده، قالت سألت رسول الله ﷺ كما سألتني فقال: أحسنهما عقلا.

فقلت يا رسول الله، إنما أسألك عن عبادتهما!! فقال يا عائشة إنهما لا يسألان عن عبادتهما، إنما يسألان عن عقولهما فمن كان أعقل كان أفضل في الدنيا والآخرة!!!

وإذا أحب الله عبده تفضل عليه بعقل راجح يهبه نعمة المعرفة والإدراك والإصابة، فيهتدي به إلى الحق، ويدافع به عن الحق، ويحيا به مع الحق. ويعيش به في كل مكان كما يعيش الأسد بقوته حيث كان!!

والناس يتفاوتون في عقولهم تفاوت الشموع أو الزهور في المروج، وعقل الرجل يعرف بمدى إصابته للرأي، وقوة حجته، ووضوح برهانه، وقدرته على مجاهدة النفس الأمارة، وانتصاره على الهوى والشيطان، والتزامه السير على الطريق الواضح.

ويحدثنا التاريخ -وهو العالم الخبير بخفايا الإنسان وقصصه عبر عصور مختلفة- عن العقلاء الذين انتفعوا بعقولهم لأنهم استعملوها وأحكموا بها النظر في الحياة فكان أن أدركوا أن كل ما يملكه الإنسان في هذا الوجود ليس إلا سرابا خداعا، وصورا براقة، ينسبها إلى نفسه، ويدعي أنه بها قوي وغني، وعظيم، وهو في الحقيقة ضعيف وفقير وحقير.

إنهم أدركوا في عمق أن ما يملكه الإنسان ويمكن أن يعد به قويا وغنيا وعظيما إنما هو القدرة على الاستغناء، والاستعصاء على الذوبان والمسخ والتشويه والبحث عن الحقيقة بكل نزاهة وتجرد ثم التشبث بها، والدعوة إليها، والدفاع عنها بكل ما يمكن من قوة وسلاح.

هذه هي القوة التي إذا ملكها الإنسان يعد مالكا وقويا، لأنه بها يتغلب على العقبات، ويتخطى بها كل القيود، ويستعلى بها عن كل الشهوات والمغريات، ويحيا ويموت مرفوع الرأس، باسم الثغر، مطمئن القلب.

إن هذا الذي يضمنا معه هذا الحديث واحد من هؤلاء الأقوياء الذين ملكوا العقول الراجحة فأبوا أن يضلوا عن الجادة، واستنكفوا أن يعيشوا مع الهوام والحشرات، فتطلعوا إلى السماء، وراحوا يستلهمونها وحيا، ويستمدون منها نورا وهدى.

إنه من أبرز الشعراء الثوريين في النهضة الحديثة الذين جاهدوا بالفكر والقلم في سبيل الإسلام حتى النفس الأخير من حياتهم.

انحدر من بيت أصيل اشتهر عبر تاريخ طويل بالجاه والغنى والكرم، ولد في قرية الحمرا بلبنان سنة 1889م، وفي سنة 1908 هاجر إلى

البرازيل ولم يكن ذلك لطلب الكسب والغنى وإنما كان استجابة لنفسه الرغيبة الطموح التي تهيب به إلى الهجرة.

وهناك في المهجر لمع نجمه، وذاع صيته، واحتل مكانة مرموقة لم يحتلها مهاجر مثله، وكانت النوادي والمحافل تفاخر به كخطيب مصقع، وشاعر بليغ ملهم.

وفي سنة 1916 - وكان قد استبان النهج الواضح ورفض أن يسلك غيره- أعلن إسلامه وسجله في سجل الحكومة البرازيلية، وأقسم في عزم وتصميم أن يقضي حياته ثائرا على الاستعمار بمختلف ألوانه وأشكاله وأهدافه، وداعيا إلى الله بقلمه ولسانه، ومفاخرا بأمجاد الإسلام، ومكارمه، وقال:

**أقسمت أن أقضي الحياةَ مجاهدا**
**والحقُّ لي ولتابعي شعارُ**
**حتى نفوزَ به ونرفعَ رايةً**
**من حولها تستشهد الأنصارُ**
**الموت فخر في الدفاع عن الحِمى**
**والعيش في دار المذَلَّة عارُ**

والمتتبع لقصائد الشاعر الدينية والوطنية تتجلى له عقيدته الراسخة، وإيمانه القوي، واعتزازه بالإسلام، وطبعه الرافض للسلبية والضعة والخمول. ودعوته الحارة إلى الاستشهاد في سبيل الله ومن أجل العزة

والكرامة، ورغبته الملحة في الموت دفاعا عن الحياة ولنستمع إليه في هذه المقطوعة التي يخاطب فيها البطل الشهيد يوسف العظمة قائد موقعة "ميسلون".

**عليــك صـــلاةَ المصـطفى وسلامُـــه**

**فأنــت كبيــر صــار بالمـــوت أكبــرا**

**صِحَابــك فتيـــان كـــرام تساقطــوا**

**وكانوا على الهيجاء والموتُ أصبــرا**

**فماتوا أبـــاةً صادقيـــن تشهــــدّوا**

**فلم تشهــد الجنـــات أتقـى وأنضـرا**

**ســـلام على الأبطـــال إِن دمـــاءَهم**

**ستُحيي شعـورا لن يمــوت ويُقبَــرا**

**لعمر العلا ! الأحياء هم فمماتهـــم**

**خلود وهذا خـــط من عـــاش موثــرا**

**سقاك الحيا يا (ميسلون) كما سقوا**

**ثراك دما من صيْب المــزن أطهــرا**

**شهدت الألى يوم الشهادة أشهــدوا**

**على الحــق والحريــة اللهَ والــورا**

**تمنيت مع فتيـان قـومي شهـــادتي**

**ولكـنـني أهـــوى الحيـــاة لاثْـــأرا**

ولقد رسم الشاعر المسلم لنفسه خطة فالتزمها بدقة ولم يحد عنها، ولم يفرط في جنبها، وبالرغم من صعوبتها فقد رفض أن يتوانى عنها، أو يضعف أمام تبعاتها والتزاماتها، فها هي الخطة كما أعلن عنها:

«حرا كنت وحرا أظل أمام الله والبشر، لا آلو في الجهاد حتى تبلغ النفس عذرها، أو تكشف عسرها، كتب الجهاد عليّ فالحمد لله الذي جعل لي نصيبا، وأن نفوس الشرفاء وأموالهم مبذولة في سبيل الله والأمة والوطن، فمنهم مجاهدون بالسيف، ومنهم مجاهدون بالقلم، وقد تساوى الجميع أجرا وصنيعا. إلى الله أسلم وجهي، ومن الحق أستمد القوة ولو بلغت روحي الترقوة، نصرنا الله لنصون ديننا ودنيانا، وأنعم علينا بأن نعيش أحرارا وأن نموت عربا مسلمين».

وظل الشاعر المؤمن -على الدرب الصاعد الذي اختاره لنفسه ورفض أن يسير على غيره- يصوغ ألحان البطولة على وقع المجاهدين، ويغري باقتحام لهيب المعركة في سبيل الله وفي سبيل الحرية والكرامة، ويهز المشاعر والأحاسيس بنبضات قلبه، وومضات فكره، عن أمجاد العروبة والإسلام، ويدعو إلى التعبئة العسكرية كما أرادها الإسلام، ويرسلها صيحة مدوية بأن العزة كل العزة في التجند والجهاد والموت في ساحة الوغى ويقول:

**لقـــد كتـب الله القتـــالَ فجاهـــدوا**

**لأجـــر ومجـــد أو لعـــــز ومنعــــة**

**قتال العدى فرض على كل مسلـــم**

**وإني بــريء من فتى غيــر مصلَـــت**

أكِبُّوا على حمــل الســلاح تمرنــا

فإن تمرسوا يصبــح كلهــو وعـــادة

تجنُّدكم طوعـــا وكرهـــا فريضـــة

فكونوا جنــودا بســلا في الحداثـــة

ولا تطلبوا الإعفاء من غيــر مانــع

لكـم شـرف بالخدمــة العسكريـــة

ورثتـم عـن الأجــداد مجــداً مؤثــلا

وقد فتحـوا الدنيـا لدينــي وسلطتي

فأين المغـــازي والفتــوح ترومهــا

جنــود وقــواد شــداد المريــــرة

بأبطالــه المستشهديــن تشبَّهـــوا

ورجوا له عــودا بصــدق العزيمـــة

تنادوا وثوروا واستميتوا لتنقـــذوا

ديارًا من الإسـلام في كـل قبضـــة

وإذا كان الإسلام يعدّ القوة المعنوية قبل القوة المادية ويرى التدرع بها ضروريًا قبل التدرع بالسلاح المادي، فإن شاعرنا الملهم، والمسلم الواعي بتعاليم القرآن يدعو إلى ذلك ويقول:

وكونـــوا أمــة يــوم التنــــادي

على أمــم من الغـــرب الغـــويّ

فوهن الشعب من وهـن المزايـا
ومن فقد السـلاح المعنـويّ
وفي صدق العزيمة كل صعـب
يهون على الشجـاع الأريحـيّ
أبي النفس يلقى الموت طوعـا
ويقحمـه ببـأس عنتـريّ
قوًى الأرواح فوق قوَى السـلاح
فِرنجـيٌّ يعَـد لمشـرقيّ
فلـو أن النفـوس لها جمـاح
لكسرنـا المدافـع بالعصـيّ
فإمّا الحرب في تحصيـل حـق
وإما السّلـم في حكـم سـويّ

وهكذا عاش الشاعر العبقري حياته كلها مؤمنة إيجابيًا، ومسلما عمليا، وطاقة بناءة، وشعلة مضيئة ومحرقة في آن واحد، وينبوعا فياضا من ينابيع القوة والنصر.

أما من هو هذا الشاعر الذي رفض المسيحية واستبدلها بالإسلام، ورفض الخنوع والخضوع، والخوف والذل، والتبعية والإضافة، والرضى بالوضع المخجل الذي تعيشه الأمة العربية فإنه:

«أبو الفضل الوليد»[1].

(1) وكان اسمه قبل الإسلام «إلياس طعمة».

«بالله لقد صدقتني ولم تخادعني ولم تألفني»

في موقعة اليرموك سنة 13 هـ كان جيش الإسلام عدده أربعون ألف مجاهد بقيادة خالد بن الوليد.

وكان جيش الروم مائتين وأربعين ألف مقاتل وكان على رأسهم القائد الروماني (جرجة) الذي يفرح الروم لقيادته كما يفرح المسلمون بقيادة خالد بن الوليد لهم...

والتقى الجيشان، ودارت رحى المعركة والتحمت الأجسام بالأجسام وتكسرت النصال على النصال. وتطارد الفرسان في قتال شديد مرير أظهر خلاله كل من الكفر والإيمان قوته وصلابته وشدته.

وفي فترة هدنة بين الفريقين طلب (جرجة) قائد جيش الروم أن يبرز إليه خالد بن الوليد في الساحة بين الجيشين، فبرز إليه خالد، وأقام أبا عبيدة مكانه وظلا يتقاتلان حتى اختلفت أعناق جواديهما، وأمن كل واحد منهما صاحبه، ودار بينهما هذا الحوار:

جرجة: يا خالد، أصدقني ولا تكذبني، فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع... بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم؟

خالد: لا...

جرجة: فبم سميت سيف الله؟

خالد: إن الله عز وجل بعث فينا نبيه ﷺ فدعانا فنفرنا، ونأينا عنه جميعا، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه، وبعضنا باعده وكذبه فكنت فيمن

كذبه وباعده وقاتله، ثم إن الله أخذ يقلوبنا ونواصينا... فهدانا به فتابعناه، فقال أنت سيف من سيوف الله، سله الله على المشركين.

ودعا لي بالنصرة فسميت سيف الله بذلك.

فأنا من أشد المسلمين على المشركين.

جرجة : صدقتني... إلام تدعوني؟

خالد: إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله والإقرار بما جاء به من عند الله.

جرجة: فمن لم يجبكم؟

خالد: فالجزية ونمنعهم...

جرجة: فإن لم يعطها؟

خالد ـ نؤذنه بحرب ثم نقاتله.

جرجة: فما منزلة الذي يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم؟

خالد: منزلتنا واحدةفيما افترض الله علينا شريفنا ووضيعنا، وأولنا وآخرنا.

جرجة: هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من الأجر والذخر؟

خالد: نعم وأفضل.

جرجة: وكيف يساويكم وقد سبقتموه؟

خالد: إنا دخلنا في هذا الأمر وبايعنا نبينا ﷺ وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالكتب، ويرينا الآيات.

وحق لمن يرى ما رأينا، ويسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع، وأنكم أنتم لم تروا ما رأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل في هذا الأمر بحقيقة ونية كان أفضل منا.

جرجة: بالله لقد صدقتني ولم تخادعني ولم تألفني؟

خالد: بالله لقد صدقتك وما بي إليك ولا إلى أحد منكم وحشة وأن الله لولي ما سألت عنه.

جرجة: صدقتني...

فتح القائد الروماني بصره، وعمق تفكيره في كلام خالد وعاش في أبعاده بكل وجدانه ومشاعره، وسرح نظره في طبيعة هذا الدين الخالد، الذي غير موازين التقدير ومفاهيم القيم، وكان المسلمون يرقبون في لهفة الظامئ، ما يجري بين القائدين ويتطلعون في ذهول، إلى ما وراء هذه الوقفة الغامضة التي لابد أنها تخفي سرا عظيما.

ولم تطل الوقفة ولم يطل الانتظار حيث أدرك القائد أن هذا الدين مناط الأمن والطمأنينة والعز ومن يسلم وجهه إليه هدي سبيل الرشاد، ورزق قوة البأس، ولا يسير في ركبه إلا من نال السعادتين، وفاز بالحسنيين.

فقلب الترس ومال مع خالد وقال. علمني الإسلام، فمال به خالد إلى فسطاطه فشن عليه قربة من ماء ثم صلى ركعتين، ثم زحف خالد بن الوليد ومعه جرجة على صفوف الروم، حتى تصافحوا بالسيوف.

وكانت المعركة ضارية رهيبة استمرت من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب، ولم يسفر وجه الفجر في تلك الليلة حتى كان خالد في

فسطاط أمير الروم (تيودور) تحيط به خيله، وأعلام النصر ترفرف على رؤوس المسلمين... وأصيب جرجة رحمه الله ولم يصلِّ لله إلا تلك الركعتين مع خالد بن الوليد...

هذا جرجة القائد الروماني الشهير الذي عاش حياته كلها في كفر وظلم وطغيان، ينفلت من نفسه الأمارة، وتستيقظ فيه الفطرة، وتتقشع عن قلبه الغشاوة، فيرفض الظلام الذي كان يتخبط فيه، وينشد النور المبين الذي يرى على ضوئه حقيقته ومركزه في الوجود. ووظيفته في الحياة.

أجل هكذا رفض جرجة كل ماضيه بكل ما فيه من شرك ووثنية، وزيغ وضلال، وتحول في لحظات من رجل كافر جاء لمحاربة الإسلام إلى مؤمن صادق يؤمن بالله وحده ويحارب من كفر بالله.

أجل إنه نظر بالعقل الراجح، والقلب المتفتح، والضمير اليقظ فرأى وأدرك : رأى نفسه في غير وضعها الطبيعي، وأدرك أنه منحرف عن الجادة القويمة، فرفض بإصرار أن يبقى على وضعه ويظل على دربه، فاهتدى واستقام، وفاز بالشهادة، وصعدت روحه إلى الملأ الأعلى تاركة وراءها من حسن الذكر ما يبعث على الإعجاب، ومن وضوح الرؤية وصفاء البصيرة، ونقاء الطوية ما يبعث على الاغتباط.

«إذا عرض لك أمران : أمر الدنيا وأمر الآخرة، فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى...»

لقد كان العلماء المؤمنون وما يزالون أقوياء أوفياء يعتقدون أنهم جند الله الذين يدافعون عن الحق، ويراعون حرمته، ويحاربون الباطل وأهله مهما كانت الحال وظروف المواجهة، فهم يحملون سلاح الكلمة المؤمنة الخالصة، وسلاح الإيمان بالله وحب الوفاء له، فلا يبالون إذا ناصحوا أو جاهدوا أو واجهوا بما يلاقيهم من إهانة أو تعذيب أو نفي، فغايتهم أن يبرئوا ذممهم، ويرضوا ضمائرهم، وينالوا رضى ربهم ولسان حالهم :

ولسـت أبالي حين أُقتَـلُ مسلمـا

على أي جنب كان في الله مصـرعـي

ومن هؤلاء العلماء الصادقين، الذين تجاوز جهادهم ميدان التأليف والتدريس، وميدان الخطابة والفتوى، هذا العالم الأندلسي الذي تتلمذ على العالم المفكر، والباحث الشهير، ابن الوليد الباجي، ولما نال منه الكثير ارتحل إلى الشرق للاستزادة من مناهله العلمية العذبة، فدرس مدة في مكة ثم تركها إلى بغداد حيث عكف على حلقات كبار المتصوفة هناك حتى صار عابدا زاهدا، وغادر بغداد إلى لبنان وعاش في جبالها وتصادق مع الشيخ عبد الله السايح الذي كان لا يغادر الجبل الذي يتعبد فيه...

وضاق صدر الشيخ بلبنان بعد استيلاء الصليبيين على أغلب مدنها وهم عاجزون فاعتزم الرحيل إلى مصر، واتجه إلى الإسكندرية وكانت إذ ذاك معطلة دينيا نتيجة معارك الخلافة التي تدور على أرضها والتي ذهب من جرائها علماء كثيرون، وحز في نفس الشيخ أن وجد صلاة الجمعة قد عطلت بالمدينة مدة طويلة.

ولكن الشيخ المؤمن لم يركن إلى زاوية بالمسجد يصلي صلاته ويجتر أحزانه، وينتظر ما يأتي به الغد، بل ثار وهاج، وأنكر ما عليه الوضع، وأخذ يلقي الدروس النافعة، والمحاضرات القيمة، والمواعظ الصادقة، يعبئ القلوب بالإيمان. ويبث في النفوس خير المثل والصفات، ويطهر العقول من الأوهام والخرافات، ولم تمض إلا مدة قصيرة حتى عادت إلى الإسكندرية مكانتها الدينية، وأصبحت في مصر بفضل جهاد الشيخ مدرسة الدين، ومركزا هاما من المراكز العلمية بالشرق الإسلامي.

وللشيخ مواقف شجاعة وقفها ضد الحكام المستبدين مما يدل على إخلاصه ووفائه، وحبه لله ورسوله، وفهمه لرسالة العلماء بأنها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وكلمة صريحة واضحة، يؤيد بها الحق ويدحض بها الباطل، ورفض في قوة وإصرار لكل أنواع الذل والهوان، وموت في سبيل حياة عزيزة كريمة.

فمن مواقف الشيخ البطولية التي سجلها التاريخ في إعجاب وتقدير موقفه في القاهرة مع الملك الأفضل شاهنشاه، وكان الشيخ قد سمع عن قوته وجبروته، فقصده لنصحه وإرشاده، وإيقافه عند حده، فلما جلس إليه اندفع يقول في لهجة صادقة، ودون مواربة أو مجاملة :

«اعلم أن الملك الذي أصبحت فيه إنما صائر إليك بموت مَنْ قبلك، وهو خارج عن يدك مثل ما صار إليك، فاتق الله فيما حولك من هذه الأمة، فإن الله سائلك عن النقير والقطمير، فافتح الباب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، أعانك الله على ما قلدك، وجعلك كهفا للملهوف وأمانا للخائف».

وعاد الشيخ الجليل إلى الاسكندرية وقد ذاعت مواقفه وصار حديث الأوساط المختلفة، ومثار الإعجاب والتقدير، وكاد يقوم بثورة تكتسح أوكار الظلم والطغيان فاستدعاه الملك الأفضل، ورأى أن يضع حدا لنشاطه الرهيب الذي يتفاقم مع الانتصار ففرض عليه الإقامة في مسجد الرصد بالفسطاط، واستمرت إقامته فيه شهورا يعاني من الضيق والضجر حتى مات الملك الأفضل وخلفه المأمون البطاحي فأفرج عن الشيخ وقربه منه وأكرمه وأعلى مكانته مما جعل الشيخ يصنف له كتابا تحت عنوان (سراج الهدى).

وعاد الشيخ إلى الاسكندرية حيث انكب على تصنيف كتابه القيم عن السياسة وفن الحكم الذي سماه (سراج الملوك) وفي عام 516 هـ، حمل هذا الكتاب إلى القاهرة وعرضه على البطاحي ليعيد النظر في الحكم وفي تقاليده.

وكان أن استقبله الملك بحفاوة بالغة، واستعمل معه أسلوب الدهاء والسياسة، وجلس بين يديه كما يجلس التلميذ بين يدي أستاذه وكان الشيخ يشرح له وينقده وهو يصغي بنباهة واهتمام.

وأقام الشيخ في ضيافة الملك معززا مكرما شهرين كاملين وحينما اعتزم الرحيل طلب من الملك أن يسمح ببناء مسجد كبير بالاسكندرية فلم يكن في استطاعة الملك أن يرفض له هذا الطلب الذي زاد الشيخ قيمة وتقديرا، وأكد ما عرف عنه من علو الهمة. وسمو النفس، وإنكار الذات، ولم تمض إلا فترة وجيزة حتى تم في الاسكندرية بناء المسجد

الكبير على نفقة الملك الخاصة. ولا يوجد اليوم أثر لهذا المسجد، فقد اختفى مع كثرة التنظيمات التي شملت المدينة...

وهكذا عاش الشيخ مجاهدا بالفكر والقلم واللسان، ينصر الإسلام ويدافع عن المسلمين، ويوقظ النيام ويهز المشاعر، ويجاهر دون خوف أو تردد بأن الحكم الظالم المستبد أخطر على الأفراد والمجتمع من الوحش الضاري.

وكان الشيخ مع ذلك كله متواضعا متقشفا متقللا من الدنيا راضيا منها باليسير وكان يقول :

إذا عرض لك أمران أمر دنيا وأمر أخرى فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى، وكان كثيرا ما ينشد هذه الأبيات :

إن لله عبـــادًا فُطَنـــا    طلَّقوا الدنيا وخافوا الفتَنَـــا
فكَّروا فيها فلمَّا علمـــوا    إنهـــا ليســـت لِحيٍّ وطنَـــا
جعلوها لجَّـــةً واتخـــذوا    صالحَ الأَعمـــال فيها سُفُنـــا

وتوفي الشيخ المجاهد عام 520 هجرية بعد أن خلف وراءه نحو أربعة عشر كتابا تعكس رفضه الصارم لحياة التبعية والتزلف، وحياة الخوف من غير الله، وحياة السلبية والفراغ والراحة، وحياة الجبناء والأمعات والمستسلمين الذين هم شر ما تبتلى به البلاد والعباد.

وبعد فهل تعلم من هو هذا؟

إنه العالم الثائر :

«أبو بكر الطرطوشي»

(اما أنا في نفسي فلا يضرني التهديد، ولا يمنعني من نصيحة السلطان فهو واجب علي وعلى غيري)

ما أعظم الإنسان حينما يسيطر على قلبه وعقله شعور بعظمة الله وحده، وإحساس بوجوب نصرة الحق، والتضحية في سبيله.

وايا كان هذا الإنسان، وكيفما كان وضعه ومركزه ومستواه فإنه بهذا الشعور يقوى على كل قوي، ويعظم في عين كل عظيم، ويعلو على كل عال، ويواجه العواصف الهوجاء، والمواقف العصيبة برباطة جأش وصداقة بأس، لا تعوقه صدمة، ولا يخيفه خطر، ولا يثنيه عن هدفه جبروت أو إرهاب مهما كانت القوى التي تسانده وتؤازره.

وأقل مايقال عن هذا المؤمن الصادق، والعالم البطل، والرافض العنيد انه من اقطاب العلم، ومثل رائع للزهد والتقى وحب الخير، وسراج منير استضاءت بنوره الامة الاسلامية وما تزال تستضيء.

ولد بنوى احد ى قرى الشام قرب دمشق سنة 631 هـ، ولم يكد يسلخ من عمره اربع عشرة ربيعا حتى حفظ القرآن حفظا جيدا وصار مضرب المثل في الحفظ والفهم والتحصيل والدراية.

ذكره الشيخ قطب الدين اليونيني وقال: كان أوحد زمانه في العلم والورع والعبادة والتقلل وخشونة العيش.

وقال عنه شمس الدين بن الفخر الحنبلي: كان إماما بارعا، حافظا متقنا علوما جمة وصنف التصانيف الجمة وكان شديد الورع والزهد.

وقال ابن العطار: كان لايضيع له وقتا، لا في ليل ولا نهار، حتى في الطريق... مع ماهو عليه من المجاهدة بنفسه، والعمل بدقائق الورع والمراقبة وتصفية النفس من الشوائب، ومحقها من أغراضها).

وللإمام العالم مؤلفات عديدة تعد في طليعة المؤلفات الدينية في الفقه والحديث، وهي أسس ودعائم في فقه الشافعية، تناولها أئمة أعلام بالشرح والتفصيل، أو بالاختصار والإيجاز!!

وإذا كان الإمام قد رفض طوال حياته أن يعيش كما تعيش البهائم يأكل ويشرب وينام، بل عاش يجاهد بالقلم والفكر واللسان، فإن له مواقف رفض فيها أن يلين ويضعف، أو يتساهل في أمر رآه عظيم الأهمية بالنسبة للامة الاسلامية، رفض ان يسكت أو ان يخفي الحق، فمن ذا الذي يجهر بالحق، ويرفض في شجاعة واصرار اذا لم يكن هذا الإمام المؤمن العالم؟

كان الظاهر بيبرس تحت ضغط حرب التتار يبالغ في فرض الضرائب فكتب إليه الإمام العالم كتابا من دمشق يقول فيه :

« ... إن أهل الشام في هذه السنة في ضيق وضعف حال، بسبب قلة الأمطار، وغلاء الأسعار، وقلةالغلات والنبات وهلاك المواشي، وأنتم تعلمون أنه تجب الشفقة على الرعية، ونصيحة وليّ الأمر واجبة، وهو في مصلحته ومصلحتهم، فإن الدين النصيحة».

وعندما اتصل السلطان بالكتاب هاج وثار وكتب إلى الإمام مهددا ومتوعدا، ولكن الإمام لم يكن يخاف غير الله تعالى، ولا يهمه إلا رضاه، فأجابه مؤكدا قوله ونصيحته، ومبينا له أن نصيحة ولي الأمر فريضة وميثاق أخذه الله تعالى على العلماء فمن تهاون فيه تعرض لعقاب الله تعالى.

ومما جاء في كتابه إلى السلطان قوله :

«... أما أنا في نفسي فلا يضرني التهديد، ولا يمنعني من نصيحة السلطان، فهو واجب علي وعلى غيري، وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول الحق حيثما كنا، وألا نخاف في الله لومة لائم، ونحن نحب السلطان وما ينفعه في آخرته ودنياه».

ثم حضر السلطان إلى دمشق وجمع العلماء وطلب منهم فتوى بفرض الضرائب وجمع الأموال من الشعب لحرب التتر، والمعروف أنه إذا دهم المسلمين عدو مغير أصبح الجهاد فرضا بالنفس والمال وأصبح من حق الحاكم أن يأخذ من أموال الشعب ما يمكنه من قتال العدو ولكن الإمام العالم عز عليه أن يتحمل الشعب وحده هذه الضرائب ويبقى السلطان ويبقى الأمراء المماليك يتمتعون بأموالهم، وينعمون بالرخاء دون الشعب، ولا يؤخذ منهم شيء.

فواجه السلطان بكل شجاعة وقوة دون أن يقرأ للعواقب أي حساب فقال له :

«أنا أعرف أنك كنت في الرق مملوكا للأمير (بند قدار) وليس لك مال، ثم من الله عليك وجعلك ملكا، وسمعت أن عندك ألف مملوك كل مملوك له (حِيًّاصة) من ذهب، وعندك مائة جارية، لكل جارية حق من الحلي، فإن أنفقت ذلك كله، وبقيت مماليك بالبنود الصوف، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي افتيتك بأخذ الأموال من الرعية.

ولم يكد السلطان يسمع هذه الكلمات التي لم يألف سماعها من غير هذا المؤمن الصادق حتى ثار غضبه، وغلى دمه، وقال له في لهجة عنيفة صارمة : اخرج من بلدي.

فقال الإمام في رزانة العلماء، وثبات العقلاء : السمع والطاعة!

وخرج الإمام إلى نوى بالشام، البلد الذي ولد فيه.

فقال الناس للسلطان : إن هذا الرجل من كبار علمانا وصلحائنا وممن يقتدى بهم فأعده إلى دمشق!!

فاضطر السلطان إلى أن يبعث إلى الإمام يطلب منه العود إلى دمشق ولكنه رفض في استعلاء العقيدة، وكبرياء الشجاعة وقال :

لا أدخلها والظاهر بها.

وحقق الله رغبة الإمام، ولم يدخلها إلا بعد أن مات الظاهر بيبرس بعد شهر فقط [1].

هكذا كان هذا الإمام العالم، يرى أن العلم سلاح يجب الجهاد به والمحاربة، ويجب البناء به والهدم، بناء الصالح وهدم الطالح، بناء ما يفيد، وهدم ما يبيد وهكذا فليكن العلماء، وإلا فلا حاجة لأحد إليهم ولا إلى علمهم.

فالعالم يجب أن يكون بصيرا بكل نافع وضار، آمرا بالنافع لأنه نافع، وناهيا عن الضار لأنه ضار، دون أن يكون له وراء ذلك غرض إلا إرضاء الله والضمير، وتحقيق المصلحة العامة، ودون أن يخاف من أحد مهما كان مركزه ومهما كانت قوته.

والعالم الحق هو الذي يعظم بعلمه، ويقوى بعلمه، ويعلو بعلمه، فتراه يجل نفسه عن سفاسف الأمور، ومواطن الذل، ويصمد عند المواجهة في سبيل الحق، ويرفض الاستكانة والاستخذاء والإحجام كلما رأى حرمة تنتهك ، أو شرفا ينهش، أو حقا يسلب، أو وطنا يهاجم.

أما هذا العالم المؤمن الذي سيظل مفخرة العلماء بهذه المواقف البطولية المشرفة فإنه : «محيي الدين النواوي» رحمه الله.

---

(١) ابن تيمية لمحمد أبي زهرة بتصرف.

«يجب على كل مسلم في الجيش أو الشرطة أو غيرهما أن ينسحب من عمله حالا نظرا إلى أن الانجليز يتخذونهم وسيلة لإذلال المواطنين والمسلمين».

من شأن المسلم الصحيح الذي كوَّنه القرآن بتعاليمه وأخلاقه أن يكون قويا لا يضعف، وشجاعا لا يخاف، وثائرا لا يهاب، وصلبا لا يلين، وعزيزا لا يقبل الضيم والهوان، ولا يرضى بالتبعية والإضافة، فما بالك إذا كان هذا المسلم عالما أتاه الله من سعة العلم، ورجاحة العقل، ونفاذ البصيرة، وبعد النظر ما يمكنه من التمييز بين الحق والباطل، والحسن والقبيح، ويعصمه من الزلل في الرأي، والخطل في الفهم، والتهاون في الواجب.

وإذا تصفحنا أسفار التاريخ وقرأنا عن أسلافنا العلماء الذين كونتهم العقيدة الإسلامية، تملكنا الإعجاب بمواقفهم الجريئة في وجه الحكام المستبدين دفاعا عن الحق، وإعلاء لكلمة الله، ووقفنا مبهوتين أمام الشجاعة الأدبية التي يتمتعون بها حتى يخيل إلينا أنهم من جنس آخر غير جنس البشر، أو أن وراءهم أساطيل تحميهم، فتراهم يعلنون آراءهم بقوة وشجاعة وثقة كاملة، في أنفسهم، يركبون المخاطر، ويخوضون المعارك، ولا يبالون بما ينجر وراء ذلك من عقاب أو سخط، كما أنهم لا يبالون بمن صفق وهتف، أو هاج وقدح، همهم فقط أن يعلنوا عن آرائهم التي يؤمنون بها ويلبون صوت الضمير الذي يهتف من أعماقهم.

وما أحوج الأمة الإسلامية إلى أمثال هؤلاء في هذا العصر الذي ضعفت فيه الهمم، وانحطت فيه النفوس، وصار فيه أكثر العلماء ضعفاء جبناء لا يقدرون أن يواجهوا حكامهم برفض ما يرفضون من أحكام جائرة أو شاذة، أو مقنعة ولو كان في ذلك خيانة الوطن وتهديم الدين ...

«إن من الواجب الديني على كل مسلم أن يعصي كل أمر صادر إليه يخالف تعاليم دينه فإن رسولنا ﷺ يقول : «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» وأنا عالم ديني وأولى الناس باتباع أوامر ديني، ومركزي يفرض علي أن أبلِّغ أحكام الله إلى الناس إذا لو أحجمت عن ذلك لعرضت نفسي لعذاب الله فقد جاء في ديننا أن رجلا لو سئل عن شيء فكتمه وهو يعلمه ألجمه الله بلجام من النار».

وكانت هذه الكلمة مقدمة للنقطة الحساسة التي يحاكم الشيخ من أجلها فقال : «إن ديننا يحرم أن يقتل المسلم أخاه المسلم فإن قتله ارتكب جرما فظيعا، ومن أحكامه أن الحاكم الظالم لو أمر مسلما أن يأكل لحم الخنزير أو ميتة وإلا قتله فعلى المسلم أن يرتكب هذا المحرم، وهو أخف الضررين حفظا لنفسه من الهلاك على يد هذا الظالم، ولكن الحاكم الظالم إذا أمر مسلما بقتل أخيه المسلم وإلا قتله فعليه ألا يستجيب لأمر الحاكم الظالم ولو أدى ذلك إلى قتله هو وتضحيته بنفسه في سبيل الإبقاء على حياة أخيه، وحتى لا يعرض نفسه لعذاب الله لو قتله، في الوقت الذي لا يكون هو عاصيا حين يضحي بنفسه...

لأجل هذا قلت : إن دخول المسلمين في جيش حكومة بريطانيا حرام حرام».

وكانت هذه الكلمة طعنة نجلاء سددها الشيخ البطل إلى قلوب القضاة الإنجليز كما كانت مثيرة لعواطف الحاضرين من الشعب وإعجابهم بالشيخ المجاهد حتى أن زميله محمد علي، حاول أن يقبِّل

قدم الشيخ تقديرا له وتعبيرا عما يجيش في نفسه من شعور نحو هذا الرجل وموقفه العظيم...

وفي الجلسة الأخيرة المنعقدة يوم 28 أكتوبر سنة 1921 واصل شيخ الإسلام دفاعه في قوة وصلابة وحماس وكان مما قال : «إن القرار الذي تحاكمونني من أجله ليس قرارا مني ولكنه أمر الدين، ومقاطعتكم فرض ديني على المسلمين وهذا ليس بجديد ولكنه قديم منذ جاء ديننا ولهذا لا يجوز (لمستر ريدنج) الحاكم العام أن يتدخل في أمور ديننا ويتحكم فيما يقال وما لا يقال، وإنما العلماء هم المختصون... لقد قلت أن انخراط أهل الهند في سلك الجيش البريطاني والبوليس... حرام لأن بريطانيا تستعملهم وتتخذ منهم وسيلة للضغط على أبناء البلاد وتثبيت حكمها الظالم فيها وفي البلاد الإسلامية الأخرى» هـ.

وانتهت هذه المرافعة التاريخية الخالدة في فاتح نوفمبر من سنة 1921 بصدور الحكم على شيخ الإسلام البطل وزميليه بالسجن لمدة سنتين كانتا ضمن إحدى عشرة سنة قضاها الشيخ المجاهد في سجون الهند في سبيل دينه ووطنه ومقدساته.

وهكذا ضرب شيخ الإسلام في الهند أروع مثل للعالم المؤمن، والمسلم الصحيح، والمجاهد في سبيل الحق. لقد رفض العزلة في المساجد وبين الكتب والمحابر. وأبى عليه إيمانه ودينه أن يكتفي بتعليم الناس وتربيتهم وتلقينهم أمور دينهم وشؤون حياتهم، فأعلنها صيحة مدوية ضد المستعمر الذي يجثم بظلمه وعسفه وجبروته على الوطن فأيقظ النائمين، ونبّه الغافلين، وألهب مشاعر المؤمنين...

أجل لقد رفض هذا المؤمن الشجاع أن يكون إيمانه ودينه أفكارا ومفاهيم، وحدودا ومعالم تقرأ وتحفظ ولا يرى لها وجود في حياة الأمة ودنيا الناس فخرج من دائرة القول إلى دائرة العمل، ومن نطاق النظر إلى نطاق التنفيذ والتطبيق...

لقد آمن الشيخ الهندي أن القوانين والمبادئ والحدود ليست إلا شعارات ونظريات فارغة لا معنى لها ولا وزن ما لم تتحول إلى عمل وتحويل وتغيير، وما لم تنر الدرب، وتشعل النار، وتفجر الصدور، وتملأ السجون...

لقد أدرك شيخ الإسلام أن المسؤولية عبء ثقيل، يجب على من تحملها أن يراعي تبعاتها، فرفض حياة الدعة والخمول، ونزل إلى الميدان يجاهد، ويرابط، ويكافح في سبيل الأمانة التي أنيطت بكاهله، غير مبال بما يلاقي في ذلك من إذايات أو موت، ولسان حاله ينشد:

**ولست أبالي حين أُقتَلُ مسلما**

**على أي جنب كان في اللّه مصرعي**

وبعد فلا إخالك، عزيزي القارئ، إلا في شوق إلى معرفة من هو هذا الشيخ المجاهد، الذي وقف هذه المواقف الجريئة الشجاعة ضد الانجليز وهو الأعزل إلا من العقيدة والإيمان، ورفض أن يعيش سلبيا كما يعيش كثير من رجال الدين...

إنه الزعيم الإسلامي البطل المرحوم (حسين أحمد مدني).

«يا أمير المؤمنين... إن للناس أعلاما يفزعون إليهم في دينهم ويرضون بهم، فاجعلهم بطانتك يرشدوك، وشاورهم في أمرك يسددوك».

لم يكن النصح والإرشاد في صدر الإسلام مقصورا على أهل العلم ورجال الدين بل كان الناس على اختلاف طبقاتهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا يألون في ذلك جهدا، ولا يخشون فيما يقومون به لومة لائم، فلم تكن ترهبهم القوة، ولا يثنيهم التنكيل والتعذيب، بل كانوا أقوى ما يكونون إيمانا بالله وطمعا في رضاه وهم يؤدون واجبهم.

من ذلك أن خليفة المنصور كان يطوف بالكعبة فسمع رجلا يقول: «اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع».

فدعاه المنصور، فصلى ركعتين واستلم الركن ثم أقبل على الخليفة فسلم عليه، فقال له المنصور:

ما الذي سمعتك تذكره من ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع؟ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أرمضني!!

فقال الرجل في قوة من الايمان والثبات:

يا أمير المؤمنين إنَّ أمنتنى على نفسي أنبأتك بالأمور من أصولها وإلا احجزت منك واقتصرت على نفسي ففيها لي شاغل.

فقال الخليفة، أنت آمن على نفسك فقل.

فاندفع الرجل يقول في غير ما خوف أو خجل:

إن الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين ماظهر من البغي والفساد لانت!!

قال المنصور- وقد غاصت نظراته فقي وجه الرجل-: ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي، والحلو والحامض عندي؟

قال الرجل في ثقة واعتزاز: وهل دخل أحدا من الطمع مادخلك؟ ان الله تبارك وتعالى استرعاك المسلمين وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر وأبوابا من الحديد، وحجبة معهم السلاح ثم سجنت نفسك فيها عنهم وبعثت عمالك في جباية الاموال وجمعها، وقويتهم بالرجال والسلاح وأمرت بألا يدخل عليك من الناس الا فلان وفلان، نفر سميتهم ولم تأمر بايصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع العاري ولا الضعيف الفقير ولا أحد الا وله في هذا المال حق، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثر على رعيتك وأمرت ألا يحجبوا عنك، تجبي الأموال وتجمعها ولا تقسمها، قالوا: هذا قد خان الله فما بالنا لانخونه وقد سجن لنا نفسه! فأتمروا بأن لا يصل اليك من علم أخبار الناس شيء الا ماأرادوا، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم الا أقصوه ونفوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره فلما انتشر ذلك عنك وعنهم، أعظمهم الناس وهابوهم فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليقووا بها على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا به ظلم من دونهم، فامتلأت بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل، فان جاء متظلم حيل بينه وبين دخول مدينتك، فإن أراد رفع قصته اليك عند ظهورك، وجدك قد نهيت عن

ذلك وأوقفت للناس رجلا ينظر في مظالمهم، فان جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك خبره سألوا صاحب المظالم ألا يرفع مظلمته إليك فإن المتظلم منه له بهم حرمة فأجابهم خوفا منهم. فلا يزال المظلوم يختلف اليه ويلوذ به، ويشكو ويستغيث وهو يدفعه ويعُتُلُ عليه، فإذا أجهد واخرج وأراد ان يسمعك صوته ضرب ضربا مبرحا ليكون نكالا لغيره وانت تنظر ولا تنكر، فما بقاء الاسلام على هذا؟

واسترسل الرجل يقول- وقد استجمع الحاضرون حواسهم لمتابعة الحديث الجرئ-:

يا أمير المؤمنين، هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل؟

قال المنصور: لا.

قال: فكيف تصنع بالملك الذي خولك ملك الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل! ولكن بالخلود في العذاب، قد رأى ماقد عقد عليه قلبك، وعملته جوارحك، ونظر اليه بصرك، واجترحته يداك، ومشت اليه رجلاك، هل يغني عنك ما شححت به عليه من ملك الدنيا اذا انتزعه من يدك ودعاك الى الحساب؟

فبكى المنصور وقال في تأثر بالغ:

ياليتي لم أخلق. ويحك! فكيف احتال لنفسي؟

قال الرجل: ياأمير المؤمنين، إن للناس أعلاما يفزعون اليهم في دينهم ويرضون بهم فاجعلهم بطانتك يرشدون وشاورهم في أمرك يسددوك.

قال المنصور: قد بعثت اليهم فهربوا مني.

قال الرجل: خافوا ان تحملهم على طريقتك، ولكن افتح بابك، وسهل حجابك، وانصر المظلوم، واقمع الظالم، وخذ الفيئ والصدقات مما حل وطاب، واقسمه بالحق والعدل على أهله، وأنا الضامن عنهم أن يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة.

وهنا جاء المؤذنون فسلموا على المنصور فنهض للصلاة وعاد بعد أدائها الى مجلسه وطلب الرجل فلم يجده!!!

من هو هذا الرجل الذي يشكو إلى ربه- وهو يطوف بالكعبة- ما ظهر في الارض من بغي وفساد، وظلم وجور؟

ومن هو هذا الذي يدعوه الخليفة فلا يضطرب، ولا ينتفض، ولا يفقد توازنه، بل يصلي ركعتين ويستلم الركن ثم يقبل على الخليفة في هدوء ورزانة وثبات؟

ثم من هو هذا الذي وقف أمام الخليفة كالطود الشامخ معتزا بالله، قويا بالحق، مستعليا على كل وضع أو اعتبار يرفضه المنطق السليم والعقيدة الصحيحة، فواجهه بالرأي الواضح، والكلمة الصريحة، والنصح الصادق، من غير تردد أو تلعثم؟

لا أحد يعرف من هو، لأنه اختفى بعد الصلاة ولم يعثر له على أثر، ولكن لا أحد أيضا يجهل من هو!!

انه أحد الرافضين عبر التاريخ، الذي رباه الاسلام وأدَّبه فأحسن تربيته وتأديبه، وعلَّمه كيف يقول الحق وينتصر له، ولا يتطلع- وهو يبذل كل شيء ويحتمل كل شيء- إلى شكر أو جزاء، ولا يبالي- وهو في جبهة الدفاع- مايلاقي من حرمان وعذاب، أو تضحية حتى الموت.

«لقد زودته (أنا) و (أبوه) منذ الطفولة بشحنات من حب الوطن فشب وطنيا غيورا لا شيء أعز عليه من وطنه».

للمرأة في تاريخ الإسلام دور بطولي واسع تشهد به ساحات الوغى، وميادين الشرف، وجبهات المواجهة الصريحة الحاسمة ضد الباطل وضد الظلم والاستبداد.

فكم من امرأة سقت شجرة الحرية بدمها، وكم من امرأة أسقطت عرش طاغوت، وزلزلت الأرض تحت أقدام الظلمة والمستبدين، وكم من امرأة أعلنتها صرخة مدوية فأثارت الهلع والفزع في النفوس. فانكمش اللئام، وتوارى الجبناء والعملاء، وارتفعت الرؤوس من جديد، رؤوس الكرام النزهاء، أهل النهى والهمم العالية.

وكم من امرأة كانت توثر وحيدها على نفسها، وتسهر الليالي الطوال إذا مرض أو اختل مزاجه، ولا يهنأ لها بال ولا يستقر لها قرار ما دام خارج البيت خوفا منها أن يصيبه مكروه، فعندما ناداه الواجب المقدس للدفاع عن الوطن، أو لحماية الحرمات من عقيدة ودين، شجعته على استجابة النداء، ودفعت به إلى الطريق المحفوف بالمخاوف والمكاره، وعندما بلغها نبأ استشهاده، لم يهلها النبأ ولم يروعها، بل سألت في لهفة وظمأ كيف كان قتاله، فحينما تعلم أنه استبسل في الميدان وأنه لم يمت إلا بعد أن برد غليله بدم العدو، تحمد الله، وتعلن عن فرحتها بشرف الشهادة.

وصاحبتنا في هذا الفصل من هؤلاء النساء اللاتي شاركن ويشاركن في بناء الحياة بأعمالهن البطولية، وأدوارهن الإيجابية، وانتفاضاتهن المغيرة الكاشفة.

لقد قاست في سبيل تربيته متاعب كثيرة، ومشاق عظيمة، حتى استوى شابا يتوثب فتوة وقوة، ويتفجر نشاطا وحيوية.

رضع حب الوطن مع حليب أمه،،، فكان الفتيل الذي يشعل السراج أمامه وهو في البيت وفي المدرسة وفي الطريق إلى معركة رمضان.

إن حبها لابنها حب أم رؤوم لوحيدها البر، ولكن حبها لوطنها كان أقوى... ورغبتها في شرف الكفاح المقدس ضد العدو المحتل، والصهاينة الآثمين شعلة تتقد بين الضلوع.

انطلق إلى المعركة وروحه على قلبه، ودماؤه تغلي في جميع جسده، وهدفه أن ينتقم لعروبته وإسلامه، وأرضه التي دنسها شذاذ الآفاق بأرجلهم القذرة.

وظل يجاهد في استماتة واستبسال لا يعرف الإحجام ولا الخوف، حتى استشهد وأسبل عينيه على آخر شعاعة من نور الدنيا تودعه وتمجد بطولته، وتبارك للأم فداءها وتضحيتها في سبيل القضية المقدسة.

وكانت الأم منذ فراقها لوحيدها في لهفة وتعطش إلى رؤيته والتعرف على أخباره فبالرغم من وطنيتها الصادقة وإيمانها العميق بالله تعالى كانت تشعر بلهيب العاطفة يتأجج بين حناياها.

وعندما بلغها نبأ استشهاده تسمرت في مكانها وتمشى في جسدها هلع غريب، وتثلجت أطرافها ثم أجهشت بالبكاء وذرفت دموعا غزيرة ثم مسحت عينيها واستغفرت ربها، وقالت : كم أنا مخطئة يا إلهي!!

إن الموت ضرورة للحياة، فما دام الإنسان قد وجد في هذه الحياة فلابد أن يموت، فلم تعودنا الطبيعة أن نرى حيا بقي على الحياة أبدا، ولم لا نرضخ للحقيقة ونستسلم للواقع إذن؟

وكان عليّ أن أضحك لا أن أبكي، وكان عليّ أن أتلقى نبأ استشهاده بمسرة وابتهاج بدل أن أتلقاه بحزن واكتئاب.

لقد عمر جده حتى قارب المائة ومات ونسي ولم يعد يذكره إلا أبناؤه والأقربون له لأنه مات كما يموت سائر الناس، أما ابني فقد كان عمره قصيرا ولكنه سيبقى في كل ذاكرة، وعلى كل لسان يتغنى بالبطولة والشهامة والوفاء.

ومن يموت دفاعا عن الحريات والمقدسات، واسترجاعا للحق المسلوب إذا لم يمت أبناؤنا؟

ومن يلاقي الوحش الضاري القذر الذي سطا على أرضنا وعبث بحرماتنا، وتعطش إلى دمائنا إذا لم يلاقه رجالنا الأشاوش الأبطال؟

ومن يطهر هذه الأرض الطيبة من رجس المحتل البغيض إذا لم يطهرها الشباب بدمائهم الزكية الحارة؟

وعندما زارها أحد الصحفيين قالت له في عبارات قوية حاسمة: «قد زودته أنا وأبوه منذ الطفولة بشحنات من حب الوطن فشب وطنيا غيورا لاشيء أعز عليه من وطنه، وكنا لا نتحدث عن الوطن إلا في إكبار وتقديس، فعلمه ذلك كيف يحترم وطنه ويقدسه وبالتالي كيف يخدمه ويضحي بروحه في سبيله.

وكان في فجر حياته لا يقبل إلا قراءة القصص البطولية وكان يلح عليّ دائما أن أحضرها له، فينكب عليها في شغف ونهم حتى إذا ما فرغ من قصة لخصها لي في حماسة وإعجاب.

وعندما سألها الصحافي عن وقع نبأ استشهاده في نفسها قالت في ثقة المؤمنة العابدة :

إن الموت غاية كل حي ولكنها غاية ثقيلة كريهة لا سيما موت الأبناء، ولكن حتى هذا النوع من الموت يتفاوت أثره وعمقه باختلاف سببه وهدفه، فالأم التي تفقد ابنها ولو كان وحيدا في معركة دفاعا عن حق، وحماية للأمجاد والمكاسب التاريخية، يجب أن تعلم أنها لم تفقده، لأنها بموته نالت ما لا تناله بحياته، نالت شرفا لا يدانيه شرف، إنه شرف الوطنية الصادقة، وشرف الانتقام للحق، وشرف الحمية على الحرمات، والذود على المستضعفين. وأخيرا شرف التضحية والإيثار.

وسكتت أم الشهيد قليلا ريثما تستجمع أفكارها التائهة ثم قالت : لقد تعلمت في المدرسة والكتب والمجتمع كثيرا ولكني لم أعلم ابني إلا زبدة ما تعلمت..

علمته الحب والوفاء فأحب وطنه ووفى له.

وعلمته أن الخشية من الله مناعة وحصانة تقي من غضب الله فخشي ربه وعاش تقيا مستقيما رضي النفس هادئ القلب.

شكرها الصحافي على كلمتها الصادقة، وهنأها على الوسام الشرفي العظيم الذي نالته بشهادة وحيدها وصبرها وجلدها في ظروف قاسية

يعز فيها الصبر والسلوان.

وعندما وقف لتوديعها ابتسمت في حنان وهي تضع يدها على كتفه وقالت :

لي رجاء عندك أملي أن لا تخيبه.

فقال الصحافي في اهتمام بالغ :

مر وأنا طوع مشيئتك... فقالت:

إن البطل الذي يودع حياته في سبيل هدف شريف وغاية كريمة لا يريد من الناس أن يتغنوا بتضحيته، ولو أراد الشهرة لما أقدم على الموت، إنه يريد البذل في صمت وسكون. أما البديل فعند الله.

وإن الأم التي تضحي بولدها في سبيل الله وفي سبيل الوطن لا ترضى إلا برضى الله تعالى وجزائه بديلا عنه وعوضا.

فإذا نشرت عني وعن ولدي فلا تتعرض لأحد منا باسمه ففي ذكر العمل ما يغنى إن كان فيه غناء في دائرة التعبئة للجهاد.

هكذا رفضت أم الشهيد أن تلبس ثوب الحداد على وحيدها لأنه لم يمت على فراش وإنما سقط في ميدان الشرف دفاعا عن الوطن...

ورفضت أن يذكر اسمها في الصحافة أو اسم وحيدها لأنها لم تقدم ولدها ليقال إنها امرأة عظيمة، ولم يضح ولدها بحياته وهو الشاب النضر ليقال بعده إنه بطل مغوار، لا يخاف الردى، بل غايته أبعد من ذلك وأعظم.

وحسبها، وحسب ولدها وسمعة، هذه المواقف الصامدة، والتضحيات السخية في سبيل الله والوطن.

حرموا الممات على الصوارم والقنا

من كان يعطي الطعنة النجلاء

في طليعة الأبطال المغاوير الذين صنعوا تاريخ الأمة العربية والإسلامية فتحولوا بعد سقوطهم في الميدان إلى مشاعل على الطريق تنير وتضيء، وانشودات تتغنى بها الأحرار في كل مكان من الوطن العربي والإسلامي، هذا المجاهد البطل، والرافض المؤمن، والشهيد الخالد ..

قال فيه أمير البيان شكيب أرسلان :

«لم يكن رجل حرب فقط بل كان رجلا محنكا منجدا خبيرا بسياسة قومه، مطلعا على أحوال وطنه، ذا عقل سليم، وحكم سديد، وتدبير مصيب، وإنما كان العبقري الأكبر في شجاعته وصبره، وثباته وقوة عزيمته، وصلابة عوده، وشدة إيمانه، وكان كأنه صحابي كبير عاش في هذا القرن..

وأضاف الأمير شكيب أرسلان يقول: إنه من أعظم رجال هذا العصر، ومن أكبر أبطال الإسلام بلا منازع، ولا مندوحة من تدوين سيرته، وتقييد ما يمكن تذكره من وقائعه التي تفوت الحصر، وذلك في كتاب خاص موسوم باسمه ينشر في جميع العالم الإسلامي فتتلقى منه الناشئة الإسلامية الدروس اللازمة لها في البسالة والصبر والثبات والإخلاص وسائر الأخلاق العظام التي لا يصعد المسلمون إلى الذروة بعد هذا الانحدار الذي انحدروه إلا بها»[1].

وقال فيه الإمام عبد الحميد بن باديس: «بطل من خيرة أبطال العرب، ورأس من أعظم رؤوسهم، ومجاهد كان يقف في طليعة مجاهديهم،

---

(1) الشهاب، ج11، م7، رجب 1350هـ- نوفمبر 1931م. نقلا عن جريدة «الجهاد» المصرية.

وصنديد غالبته الأيام فغالبها، وصارعته الحوادث فصارعها، وحاربته دولة من أكبر دول الأرض بجنودها ودباباتها وطياراتها، فثبت أمامها ثبات الراسيات، متدرعا بالإيمان، متحصنا بقوة العزيمة، معتدا بالله، ولطالما انتصر وظفر، ولطالما انكسر واندحر، فما زاده النصر إلا عزيمة، وما زاده الاندحار إلا ثباتا، واعتكف على قتال المعتدين الظالمين وحوش الاستعمار الإيطالي فكان في حربهم شريفا مسلما، مستميتا ساعة الملحمة، رؤوفا ساعة وضع الحرب لأوزارها[1].

ولد المجاهد البطل في البطنان ببرقة سنة 1860م وحفظ القرآن الكريم وتلقى علومه الدينية في جغبوب مركز الدعوة السنوسية، ولما أتم دراسته عين شيخا على زاوية «القصور» بالجبل الأخضر ثم اختاره السيد محمد المهدي شيخا لزاوية «كلك» بالسودان وعاد إلى برقة سنة 1903 لإدارة شؤون زاوية القصور، وظل بها إلى سنة 1921، وعندما احتل الإيطاليون بنغازي تولى قيادة الحركة الوطنية ضدهم..

وهب الشعب الليبي هبة الإعصار العاتي يرفع راية الجهاد وراء قائده البطل، الذي تجاوز عمره الخمسين عاما ولكنه شديد البأس، قوي الإرادة والعزم، عظيم الثقة في الله، وفي أتباعه المجاهدين، الذين نفث فيهم روح الشمم والإباء، وروح الوطنية الصادقة..

وظل الشعب الليبي بقيادة هذا البطل المؤمن يدافع عن حرمة ترابه دفاع المستميت، بالرغم من التفاوت البعيد بين القوتين عددا وعتادا. ففي أربع سنوات فقط من الكفاح استشهد ثلث سكان ليبيا ومع ذلك لم

(1) الشهاب، ج10، م7، جمادى الثاني 1350هـ- أكتوبر 1931م.

يتسرب إلى الشعب الليبي وقائده البطل ضعف ولا وهن بل لم تكن تزيدهم التضحية إلا صبرا وإقداما، وصمودا أمام الجيوش وتعشقا للموت في سبيل الحياة..

وكان الإيطاليون يدركون بحق خطورة قائد الثورة، ويحسبون لها ألف حساب، وكانوا يظنون أنهم إذا تمكنوا من القضاء عليه فقد تمكنوا من القضاء على المقاومة طالما هو قلبها النابض ورأسها المدبر، وقائدها الناجح الموفق لذلك دبروا له مكائد، وعقدوا العزم على اغتياله عدة مرات، ولكن البطل العظيم كان يكتشف نواياهم، ويحتاط لنفسه، وينجو منهم بطرق عجيبة تذهل الإيطاليين وتجعلهم في حيرة من أمره.

وفي موقعة المعمورة وما أدراك ما المعمورة؟ وقف المجاهدون الأبطال موقفا رائعا برهنوا فيه على أن الموت في سبيل الوطن، وفي سبيل الحق، شرف لا يضاهيه شرف، فلم يهابوا القنابل المحرقة، ولا المدافع الضارية، ولا العدد الهائل من الجيوش، وفي هذه المعركة التاريخية أحس الإيطاليون بأنهم يواجهون رجالا لا يقهرون وعجبوا أن يكون قائد الثورة شيخا تجاوز الخامسة والسبعين من العمر، ولم يكن بالأمس إلا شيخ زاوية لا يعرف من أمور الحرب شيئا، وقد فاتهم أن يعلموا أن الإسلام بتعاليمه وقيمه ومبادئه هو الذي صنعه فأحسن صنعه.

شعر الإيطاليون بخطورة الهاوية التي ينحدرون فيها، فرأوا أن يلجأوا إلى الدس والخداع، والمستعمرون يتقنون هذا الدور، ولهم فيه عبقريات عندما يشعرون بالضعف أو بالهزيمة، فأرسلوا مندوبا إلى البطل

ليفاوضه في الشروط التي يريدها، وكان هدفهم من وراء هذا أن يحصلوا على هدنة زمنية يستجدون فيها نشاطهم، ويستعيدون فيها قوتهم، فكان جواب البطل الرفض الصارم للتفاوض وقال في قوة من الإيمان :

«ليس عندي شروط أمليها عليكم سوى أن تخرجوا من بلادي وتتركوها حرة طليقة كما خلقها الله...».

ولكن المندوب الإيطالي سافر من ليبيا متظاهرا بأنه سيستشير حكومته ولما رجع من سفره قال :

«إن حكومته قررت أن تعطي قائد المقاومة ما يشاء من الذهب والعقار، وتمكنه من السلطة على شرط واحد وهو أن يتخلى عن كفاحه».

فهاج قائد المقاومة وركض برجله هذه العروض، وصاح صيحة ارتجت لها النفوس وانخلعت لها القلوب وقال : «إن الوطن لا يباع بثمن، وهو أعز من الأرواح والأموال، ولا يمكن مهما كانت الظروف والأحوال أن أخون وطني وأسجل على نفسي خيانة ستبقى سبة في الأعقاب، ولوثة في جبين تاريخ العروبة والإسلام».

واستأنف البطل الرافض جهاده بعزم أقوى، وإرادة أمضى، وفي إحدى المعارك البطولية كبا به جواده، ثم تتابع الرصاص فأصيب بجروح فوقع في الأسر، وسيق إلى محكمة صورية مزيفة كان قضاتها إيطاليين، فأصدروا عليه الحكم بالإعدام فوقف البطل أمام القراصنة موقفا بطوليا خالدا، ودافع عن قضية وطنه بشجاعة وشهامة وقال لهم بصوت قوي اهتزت له جدران المحكمة بالرغم من شيخوخته :

«لو كان لكم ضمير تعرفون به شرف العدالة ونزاهة الحكم لوضعتم أنفسكم في قفص الاتهام، ولكن من أين يأتيكم الضمير وأنتم لصوص أغبياء».

ولم يراع قائد الحامية الإيطالية الجنرال «غرازياني» شجاعة القائد، ولا شرعية كفاحه، ولا تاريخه الماجد، فكبله بالحديد وسلك في إعدامه طرقا وحشية، فأعدموه بكيفية تثير الحزن والألم بعد أن جمعوا قرابة عشرين ألفا من الموقوفين الليبيين وأتوا بهم من السجون والمحتشدات إلى ساعة الإعدام فهناك شاهدوا بطلهم المغوار وهو يستقبل الموت في شجاعة نادرة، وصبر خارق، وقبل اعدامه التفت إلى الجلادين وقال لهم :

«إن الموت في سبيل حرية الوطن أفضل من الحياة المليئة بالمذلة والهوان...».

ولم يقفوا عند هذا الحد بل مثلوا بجثمانه إشفاء لغليلهم وحملوه في طائرة ثم ألقوا به من الجو، فثار سخط العرب في سائر بقاع الدنيا فلم تبق امرأة ليبية إلا وذرفت عليه الدموع، ولم يبق رجل إلا واغتاظ أشد الاغتياظ ورفض النوم والراحة والسرور حتى ينتقم لقائده ووطنه، واهتز الكتّاب والشعراء لهذه المأساة الأليمة، وانبرى أمير الشعراء أحمد شوقي يرثيه ويصوره وهو يحتضن الموت في سبيل الحياة ويقول في قصيده الرائع المشجى :

في ذمة الله الكريم وحفْظه
جسدٌ ببرقةَ وُسِّد الصحراء
لم تبق منه رحى الوقائع أعظُما
تبلى ولم تبق الرماح دماء

كـرفـات نسـر أو بقيـة ضيغـم
باتـا وراء السـافيـات هـبـاء
لبَّـى قضـاءَ الأرض أمـسِ بمهجـة
لـم تخـشَ إلا للسمـاء قضـاء
وافـاه مرفـوعَ الجبـين كأنـه
سقـراطُ جـر إلى القضـاة رداء
وأتى الأسيـر يجـر ثقـل حديـده
أسـد يجـرر حيـة رقطـاء
عضَّـت بسـاقيـه القيـود فلـم ينـؤ
ومشـت بهيكلـه السنـون فنـاء
دفعـوا إلى الجـلاد أغلب ماجـدا
يأسـو الجـراح ويطلـق الأسـراء
ويشـاطـر الأقـران ذخـر سلاحـه
ويصـف حـول خوانـه الأعـداء
وتخيـروا الحبـل المهيـن منيـة
لليـث يلفـظ حولـه الحوبـاء
حرموا الممـات على الصوارم والقنـا
من كـان يعطـي الطعنـة النجـلاء

هكذا عاش البطل الليبي، الخالد الذكر «عمر المختار» وهكذا قتل من أجل أن يحيا شعبه حرا مستقلا عزيزا، فسلام عليه في الخالدين، وسلام عليه في الأباة الرافضين...

«إِن الفرنسيين القاطنين بالجزائر ينتظرون بمرارة، اليوم الذي سيرغمون فيه على شد أمتعتهم وحقائبهم للعودة إلى الوطن الأم»

هذا الرجل ممن وقفوا حياتهم على الجزائر، يعبرون عن آمالها وآلامها، ويناضلون في سبيل حريتها واستقلالها، ويستهينون من أجل حياتها وسعادتها كل الصعاب والمشاق.

ولد بدمشق سنة 1875 وعني والده بتربيته وتثقيفه وإعداده خير إعداد لحياة البطولة والشهامة والكرامة.

عاد به والده إلى الجزائر قصد الاستقرار بها سنة 1892. ومن الجزائر أرسل إلى باريس للدراسة بثانوية (لويس لوغران) ثم في كلية (سان سير) الحربية على نفقة الحكومة الفرنسية، ورجع إلى الجزائر سنة 1895 قبل إتمام دراسته، وقد لاحظت الدواوين السرية الفرنسية إذ ذاك أنه سيء الطوية والنوايا تجاه فرنسا مما جعل الإدارة الفرنسية تفرض عليه الإقامة الجبرية ببوسعادة، ولكنه تمكن من الالتحاق مرة أخرى (بسانسير) في باريس فأظهر تفوقا كبيرا في الفنون العسكرية.

وتخرج منها برتبة ضابط، وخاض بهذه الرتبة معارك الحروب الفرنسية، فكان مثالا للشجاعة والإقدام وارتقى إلى رتبة قبطان في عام 1908م، وبرز كأعظم شخصية في الحركة الوطنية الجزائرية خلال الفترة ما بين 1913 – 1919.

وإذا كانت قيادة الناس أصعب الفنون وأدقها وأشد حاجة إلى المزايا والخصائص التي لا تتوفر إلاّ في القليل من الناس فإن هذا الرجل كان ذا

مميزات شخصية هائلة ترشحه للزعامة والقيادة وتهيئه للتخطيط ورسم المعالم والحدود.

فهو فرع دوحة أصيلة ضربت عروقها في أعماق التاريخ، ومؤمن صادق الإيمان، شجاع مقدام، شهم كريم، عفيف النفس، صريح الى ابعد الحدود، مما قد يثير انتقاده، عذب المنطق، خطيب مفوه، ملم باللغتين العربية والفرنسية، له مقدرة عجيبة على الاقناع، وروح خفيفة جذابة.

فما جالس أحدا أو تحدث إلى أحد الا ملك عليه قلبه وشعوره، وفرض عليه تقديره واحترامه، ولهذه المميزات والخصائص كان يجله حتى أعداؤه وحساده.

وبهذه الشخصية القوية الصلبة التي لا تعرف الركود ولا التردد والخوف ظل الرجل يقود الكفاح السياسي في الجزآئر من سنة 1913 الى آخر نفس من حياته.

أما الأهداف التي كان يهدف إليها بكفاحه السياسي فتتخلص في النقاط التالية التي أدرجها في هذا البرنامج الذي قدمه الى رئيس وزراء الدولة الفرنسية السيد (هريو) سنة 1925م:

**أولا:** اعطاء حق الانتخابات للمسلمين الجزائريين لتكون لهم في مجلس الأمة ومجلس الشيوخ نيابة تساوي في عددها نيابة الفرنسيين الجزائريين.

**ثانيا:** الغاء سائر القوانين الزجرية والاستثنائية والمحاكم المختصة، والرجوع الى القوانين التابعة للحق العام.

**ثالثا:** المساواة في الحقوق التامة مع الفرنسيين في المسائل العسكرية.

**رابعا:** الاعتراف بالحق للمسلمين الجزائريين في الوصول الى كل درجات التوظف العمومي غير مقيدين الا بشرط الكفاءة.

**خامسا:** تنفيذ قانون التعليم الاجباري على سائر المسلمين من اعطاء الحرية للتعليم الحر.

**سادسا:** حرية الصحف والقول والمؤسسات.

**سابعا:** تنفيذ قوانين فصل الدولة عن الكنيسة على الشرع الاسلامي.

**ثامنا:** اعلان العفو العام.

**تاسعا:** تنفيذ القوانين الاجتماعية وقوانين حماية العمال على المسلمين.

**عاشرا:** الحرية التامة لسائر المسلمين في السفر لفرنسا بدون قيود.

وقد لا تكتسي هذه المطالب أهمية كبيرة في نظر من ولد في الحرية ولم يعش في عهد الاستعمار الفرنسي بالجزائر، ولكن من عرف الجو الجهنمي الذي كانت تعيش فيه الجزائر إذ ذاك وعرف أن الحقوق معدومة، والمظالم مرهقة، والضرائب فادحة، والاحكام الزجرية قاسية قاهرة، وإن اثنين من الجزائريين لا يكادان يلتقيان حتى يكون البوليس ثالثهما، وإن إحدا منهم لا ينطق بكلمة (حقى) أو كلمة (الحرية) الا ومصيره السجن والاهانة والتعذيب...

- من عرف كل هذا عرف معنى هذه المطالب، وادرك في عمق وبعد مدى شجاعة من يطالب بها، وصدق وطنيته وإخلاصه.

وظل الرجل الشجاع يطلق صيحاته المدوية مهددة منذرة دون خوف أو تردد.

ولم يكن له ناصر في ذلك الجو الرهيب سوى إيمانه بربه، وشعوره بحقه المهضوم، وثقته في النصر إن عاجلا أو آجلا.

ومن صيحاته التاريخية التي تحدى بها الاستعمار الفرنسي قوله: «إن الفرنسيين القاطنين بالجزائر ينتظرون بمرارة اليوم الذي سيرغمون فيه على شد أمتعتهم وحقائبهم للعودة إلى الوطن الأم. فمستقبلهم غامض مجهول، والأفق امامهم ملبد بالغيوم والشحب، والعاصفة على وشك الرعد والقصف على رؤوسهم، وهم منذ الآن يتألمون ويتحسرون عليه، وقد حق لهم ان يتحسروا ويتألموا... فأي شيء أعز عليهم، وأي ألم اشد من مغادرة بلد كانوا يعيشون فيه عيشة الأمراء، والأسياد في ثراء واسع بلا كد أو تعب، تخدمهم أقوام وأمم من العبيد، دون أمل في الرجوع يوما الى ذلك الفردوس؟ اني لأشفق على كربهم حقا وعلى عدم انبثاق بصيص من نور في أفقهم»[1].

والجدير بالملاحظة ان نشاط هذا الرجل السياسي كان يرتكز أساسا على الروح الإسلامية، التي كانت تسيطر عليه وتلون كل أعماله وتصرفاته بالصدق والاخلاص والوفاء، والمراقبة التامة، وتجعله يدافع عن الشخصية الاسلامية في الجزائر بارادة قوية، وعزيمة صادقة.

ويقف تجاهها مواقف صامدة، لايقفها إلا المسلم الغيور على دينه ووطنه. فقد كان من مواقفه التاريخية الشجاعة موقفه ضد الشبان الجزائريين الذين ناصروا التجنيس.

---

(1) جريدة (الاقدام) عدد 23، مارس 1923.

فقد عارضهم في لهجة قوية صارمة وقال لهم:

«إن الوطني الصادق لن يقبل صفة المواطن الفرنسي في قالب غير قالبه، وفي قانون غير قانون أحواله الشخصية» [1].

وكان لهذا القول أثره في الاوساط الاستعمارية الفرنسية حتى لا حظ تقرير من تقارير قلم المخابرات أثر ذلك وسجل: «ان قانون التجنيس الذي بمقتضاه تجنس جميع اليهود الجزائريين بالجنسية الفرنسية لن يرضي المسلمين الجزائريين لانهم متمسكون بلغتهم وعوائدهم وشرسعتهم لا يبغون عنها بديلا ولن يتنازلوا عن شيء منها أبدا».

ولا شك أن الاستعماريين الفرنسيين انما فهموا هذه الروح العنيدة، وهذا الاصرار على الشخصية الاسلامية الجزائرية من طبيعة الجزائر أولا بقطع النظر عن أنصاف الجزائريي ذوي المطامع الرخيصة، والنوايا السيئة التي لا تخلو منهم أمة، ثم من موقف هذا الرجل السياسي البطل الذي رفض التجنيس بكل اصرار وحماس.

ورأت الحكومة الفرنسية ان بقاء هذا الرجل في الجزائر لا يكدر عليها صفو الحياة فقط، وإنما أصبح شبحا رهيبا يهدد أمنها وينخر كيانها، فأخذت تضيق عليه وعلى أنصاره، وتعاملهم معاملة قاسية، وتلتجئ الى الغش والتدليس والاحتيال، وأخيرا أجبرته على السكوت فوجد الرجل نفسه وحيدا أمام قوة رهيبة جائرة، ورأى أن بقاءه في الجزائر لم يعد يجدي، وأنه ربما استطاع أن يخدم وطنه بعيدا عنه فسافر إلى الشام

---

(1) نفس المصدر، عدد 21، يونيو 1919.

حيث يقيم أعمامه وبنو عمومته، وهناك قضى بقية حياته وهو يدافع عن الجزائر وكان مما قاله لمجاهد جزائري كبير عرفه وعاشره مدة طويلة:

«لن أعرف الراحة والطمأنينة الا يوم تصبح الجزائر فيه حرة مستقلة، واذا وافاني أجلي قبل ذلك فاستمروا انتم في كفاحكم، فسأكون في قبري مرتاحا لذلك.

إن تحرير الجزائر العزيزة هو تحرير شعبنا نهائيا من ربقة الاضطهاد والتعسف واني موقن بأننا سنفوز بهذه الامنية بإذن الله».

وتوفى رحمة الله في شهر فيفري سنة 1936 وأبَّنته نخبة من رجال الفكر والقلم، والسياسة.

وسيبقى هذا الرجل في القلوب النباضة بحب الحرية والعزة والكرامة كما بقى حياته يقاوم الاستعمار، ويرفض الذل والعار، ويرفض الذوبان في أية شخصية مهما كان نوعها، ومكانتها.

ولا يرضى بديلا عن الشخصية الجزائرية الإسلامية.

بقى بعد هذا أن تعرف من هو هذا الرجل الذي بر بوطنه ورفض الراحة والهناءة، مادام وطنه تحت نير الاستعمار الفرنسي.

إنه (الأمير خالد) حفيد الأمير عبد القادر الجزائري الذي ينام الآن هنيئا مطمنا في قبره بعد أن أصبحت الجزائر حرة مستقلة تبنى الحياة وتصنع التاريخ وتشق طريقها الى مستقبل أفضل.

رب مال هو لو شئــ ــت اقتناء عند لمس

إنمـا تمنعنـي مـن نيلـه عـزة نفــسي

هذه الشخصية العظيمة التي نتناولها في هذا الحديث شاعر فيلسوف، وأديب ثائر، ووطني غيور، وشهم همام، وأبي عفيف، يحتمل الجوع والعري والمرض من أجل أن تبقى نفسه كريمة عزيزة..

ولد يوم 18 يونيو 1863 م ببغداد لأبوين كرديين يغلب على أسرتهما طابع الدين والثقافة والأخلاق، وكان والده مفتيا لدار السلام وأخوه فقيها من فقهائها.

وانطلاقا من نشأته في هذا الجو الديني فإنه كان ينتظر منه أن يسلك سبيل أبيه وأخيه فيصبح رجل قضاء وفقه، لا سيما وهما يعلقان عليه هذا الأمل ويحرصان على تحقيقه، ولكنه لم يسلك سبيلهما ولم يحقق أملهما بالرغم من الجهود المبذولة من أجل ذلك، بل سلك سبيلا يسره الله له وحقق رغبة تتفق ونوازعه الفطرية فكان صاحب دعوة وفلسفة، والاستعداد الموهوب في الطبع هو مشيئة الخالق في الخلق ـ كما يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات ـ جعلت من هذا الرجل أبا العلاء، وقد كان أهله يريدونه أبا حنيفة...

ويذكر أصدقاؤه ـ أعني أصدقاء هذا الفيلسوف ـ أنه كان خصب الفكر، واسع الخيال، متوقد الذهن، جريئي الطبع، استطاع بهذه المواهب أن يحصل على ثقافة أصيلة واسعة، وشاعرية قوية مبدعة رفعته إلى مصاف رجال الثورة والإصلاح وإعلام الشعر والفن، ورسل الوطنية والنهضة، الذين يعبرون عن آمال الوطن والأمة..

وكان طوال حياته حركة ذهنية دائبة، وشعلة فكرية متقدة، وينبوعا فياضا دائم التدفق، لا يفنٰ يقرأ ويكتب، ولا ينتهي من نظم قصيدة إلا ليبدأ في أخرى، ولا في إعداد بحث إلا ليشرع في آخر..

واكب تطور القضية العربية في جميع مراحلها، وجاهد في سبيلها جهاد الأبطال البواسل، ووقف موقف المصلحين يحذر من عاقبة التهاون، ويحث على الوحدة والتكتل، ويدعو إلى إعداد القوة، كما كان يدعو في حرارة من الإيمان والصدق والإخلاص، إلى التضحية بالدماء والأرواح في سبيل الحرية والاستقلال :

**زكتْ دماءٌ لأَجل الحـق سائبـةٌ**

**فإنـهـا وحـدها للمجـد أَثمـــان**

**وكل شعب على الأَوعاد معتمدٌ**

**فحظه في عــراك الدهــر خـُذلان**

**إن لم تكــن قــوة للمــرء بالغــة**

**فكــل حـــق بــه قــد لاذ بطـــلان**

ومني من عصره بفساد السلطان وما ينجر عن ذلك من الاستعباد والاستبداد، فكان يندد بذلك في شعر ثوري ملتهب، ويقف مواقف بطولية من شأنها أن ترفعه فوق أعواد المشنقة ولكنه كان لا يكترث بما ينجر له من وراء موقف يقفه، أو كلمة حق يجاهد بها.

ويحز في نفسه وهو بالأستانة أن يرى السلطان عبد الحميد يحارب الأحرار، ويزج بهم في السجون، ويسومهم سوء العذاب، فينظم قصيدة تتلظى حروفها نارا، وتلتهب أفكارها التهاب القنابل، ويرسلها إليه، غير خائف أو وجل.. فيدخله السجن ويذوق فيه ألوانا من الإهانة والحرمان، ويحتمل كل ذلك في سبيل الحق، ولا يراه إلا واجبا مفروضا مقدسا. وفي هذه القصيدة يقول :

أيأمر ظلُّ الله في أرضه بما
نهى اللهُ عنه والرسولُ المبجَّل؟
فيُفْقِرُ ذا مال ويَنْفِي مبرأً
ويسجن مظلومًا ويَسبِي ويقتل؟
تمهَّل قليلا لا تَغِظْ أمة إذا
تحرك فيها الغيظ لا تتمهل
وأيديك إن طالت فلا تغترر بها
فإن يدَ الأيام منهن أطول

وكان أول من دافع عن المرأة في العراق، ونشرت له جريدة (المؤيد) في مصر أيام ولاية ناظم باشا مقالة يدافع فيها عن حقوق المرأة فثارت ضجة كبرى، وتألب عليه المتعصبون بالسب والشتم واللعن، وأيده الكتَّاب المتفتحون المهذبرن في مصر وسوريا، ولكن التعصب في بغداد كان يومئذ ذا هيمنة وسلطان، فصدر الأمر بعزله من وظيفته إرضاء للرأي العام.

ولاقى في سبيل مواقفه الجريئة الرافضة للاستخذاء والاستبداد ألوانا مختلفة من العذاب، ولكنه كان لا يزداد يواجه من مقاومة ومعاكسة ومحاربة إلا تمسكا برأيه وإيغالا في النضال.

ولنستمع إليه يحدثنا عن بعض ما لحقه من الأذى، وأصابه من ألم، وهو يتحدث عن «رباعيانه» التي سجل فيها كثيرا مما لاقاه في حياته الطويلة من عسر ويسر، وحلو ومر، وإن كان اليسر والحلو لمعات وراء سحب دكناء، ويقول :

«وقد نظمت الكثير منها في أول سنة من تبوؤ جلالة الملك فيصل على عرش العراق، أيام نكبتي في شيخوختي أيام الحياة والعوز، والأوجاع المبرحة، أيام خابت آمالي في الذي كنت أؤمل باطلا لنفسي في عهده العز، وفي ظله الراحة والرفاهية، وأتوقع لأوطاني الاستقلال والتقدم ... فما نلت ما أملته في نفسي، ولا شاهدت ما توقعته لأوطاني.. أيام حرمت من خير بلادي التي خدمتها بصدق أكثر من ثلث عصر في وقت أنا أشد الحاجة إلى ذلك الخير، أيام خيرت بين العوز والعار، فرجحت العوز على العار.

رب مـــال لـــو شـئـــ ـــت اقتنـاء عنـد لمـــس

إنمـا تمـنـعـنـي مـن نيلـــه عـــزة نـفـســـي[1]

ولما أعلن دستور العراق ـ في عهد فيصل الأول ـ عين عضوا في مجلس الشيوخ، ثم بعد أربعة أعوام خرج من المجلس بالاقتراع الذي كان قد نص عليه الدستور العراقي، ثم توالت عليه محن، فألغيت وظيفته في العدلية، وقطع راتبه، وعلم أنه سيقطع كذلك راتبه في المعارف فتركه من تلقاء نفسه وبقي بلا راتب ورفض في إباء وشمم أن يكون شاعرا للملك براتب شهري وفي ذلك يقول :

«وبعد أشهر من إلغاء وظائفي وصلني مغلف من البلاط الملكي يبلغني في داخله رئيس الأمناء أن قد صدرت إدارة جلالة الملك بتعييني شاعرا

(1) دائرة معارف الشعب.

له براتب شهري قدره (600) روبيه أعطاها من صندوق البلاط الخاص، فكتبت إليه أنني أرفض هذه الوظيفة، فلا أريد أن أكون مداحا، تلقاء أجرة أعطاها. وإني إذا شاهدت أن جلالته يخدم بلادي أمدحه على خدماته بدون أجرة. ومع ذلك فإني لا أزال ذلك العصفور الذي يغرد بمآثر جلالته إعجابا بها، لا طمعا في حبات تلقى إليه..)

وبعد ذلك بأيام قابله وجيهان من وجوه البلد ودار بينهم هذا الحوار :

- إننا مرسلان من البلاط لمفاوضتك.

- في أي شيء تفاوضانني؟

- إن جلالة الملك يريد ـ إذا وافقت ـ أن يصدر إرادته هذه المرة بتعيينك شاعرا له، ومؤرخا للعراق براتب شهري قدره (800) روبيه، على أن تتسلم هذا الراتب من تاريخ التكليف الأول، وأنت تعرف أن ذلك التكليف قد مضى عليه أكثر من ستة أشهر.

- أما المؤرخية فأقبلها.

- والشاعرية؟

- الشاعرية لجلالته بأجر، لا أقبلها إطلاقا.

- ولكن جلالته لا يريد فصل إحداهما عن الأخرى.

- ولكنني لا أريد ذلك..

- أتتحدى الملك؟

- ليفعل بي ما يشاء.

وفي ذلك يقول :

**حملت ثقيلات الهموم على ضعفي**

**ولم أقل أوه، ولم أقل أف**

**فلله دري كيف صبري على الأذى،**

**ولله دري كيف غمضي على العسف**

وهكذا رفض أن يمدح بأجر، ولو كان الذي يمدحه ملكا، والأجر الذي يتقاضاه مغريا، وإذا رأى الملك يخدم بلاده فعندئذ يمدحه إعجابا بعمله لا طمعا في ماله أو تزلفا إليه..

ونظم في أعقاب عمره ملحمته الكبرى «ثورة في الجحيم» ففزع المتزمتون من شرها إلى الملك فيصل، فلما كلمه في ذلك قال: ماذا أصنع يا مولاي عجزت عن إضرام الثورة في الأرض فأضرمتها في السماء[1] .

وظل الشاعر الفيلسوف، والثائر المقدام يهزج بأغاريد الحرية، فتتردد أصداؤها الموقظة على الروابي والجبال وتنتقل مع أنفاس الصبح الندية إلى عشاق الحرية في كل مكان، فتحرك الوجدان وتندى الأمال، وتثير النخوة والاعتزاز بأمجاد الأوطان، وتدفع إلى التضحية والفداء في سبيل الله وفي سبيل الكرامة والحرية حتى ارتفعت روحه إلى خالقها عام 1936.

ذلك ـ قارئي الكريم ـ الشاعر الفيلسوف، والرافض الثائر «جميل صدقي الزهاوي».

---

(1) نفس المصدر.

«لقد خلقت أمي في نفسي الشعور بالقداسة والطهر، لقد كانت شديدة الورع، لم تفكر يوما في أن تأكل قبل أن تؤدي صلاتها»

إنه أكبر زعيم سياسي أنجبته الهند في العصر الحديث، قال عنه أحد المفكرين الغربيين : إنه ليس في العالم رجل سياسي له من الاتباع مثل ما لهذا الرجل. وقد شهدت بلدة بور بندر مولده في اليوم الثاني من أكتوبر سنة 1869.

قضى في مسقط رأسه سبع سنوات من طفولته ثم انتقل إلى مدينة (راجكوت) حيث التحق بالمدرسة الابتدائية هناك.

وكانت أمه قوية الشخصية، شديدة التدين، مما جعل لها تأثيرا كبيرا في شخصيته، ومنها تعلم التسامح والزهد والحب لبني الإنسان. وقد سجل ذلك بقوله :

«لقد خلقت أمي في نفسي الشعور بالقداسة والطهر لقد كانت شديدة الورع لم تفكر يوما في أن تأكل قبل أن تؤدي صلاتها، ولست أذكر أنها انقطعت يوما عن أداء فريضة الصيام المقررة خلال الأشهر الأربعة الممطرة».

وأنهى دراسته الثانوية وعمره يناهز الثامنة عشرة.

والتحق بكلية (سامالداس) ثم سافر إلى لندن لدراسة القانون. وهاك كلمة في وصفه كتبها الأستاذ (جلبرت مرى) الإنجليزي وقد عرفه جيدا :

«حوالي سنة 1889 قدم إلى انجلترا شاب هندي لتعلم الحقوق وكان غنيا وبارعا ومن عائلة راقية... وكان لطيفا وديعا في معاملاته... وقد نال شهادته ومارس المحاماة زمنا في بومباي ولكنه مال عن المحاماة إلى الدين فزاد تقشفه.

ولم يلبث أن وهب ماله لأعمال البر، ولم يستبق لنفسه إلا القليل منها.

ونذر الفقر طول حياته»[1].

ثم عاد إلى بلده وبدأ يمارس المحاماة.

ولكنه لم يلبث أن دعاه الواجب للذهاب إلى جنوب إفريقيا للدفاع عن حقوق الهنود بها، فخاض معارك كثيرة في جنوب إفريقيا ضد التفرقة العنصرية بشجاعة. واضطهد اضطهادا شديدا.

وكاد يقتل ولكنه لم ينثن عزمه بالرغم من ذلك وواصل كفاحه في سبيل ما اعتقده حقا دون أن يلجأ يوما إلى العنف فإنه كان مسالما في مذهبه السياسي وهو يكره الشدة ويعتقد أن العنف من شأنه أن يشين النهضة الوطنية المقدسة.

ومن أقواله أنه يجب نيل الاستقلال بالقوة المعنوية.

على أنه يقول أيضا «إذا لم يكن بد من إراقة دم فليكن ذلك الدم هنديا.

ومن مذهبه أن الإنسان مخلوق مفكر فيجب أن يستخدم أسلحة فكرية.

أما القوة البهيمية فإنها سلاح البهائم».

وهو يعتقد أن المدنية الغربية إنما قامت على القوة المادية وأن النزعة العسكرية قد أهلكت أوربا فلم يعد ثمة رجاء في نجاتها.

وفي سنة 1915 عاد إلى الهند فكون مجموعة من 25 فردا أقسموا على أن يقفوا في جانب الحق مهما كانت الظروف، فطرح الزعيم الهندي وراء

---

(1) الهلال، ج1، ص29، يوليو 1921.

ظهره كل العادات الأوروبية من ملبس ومأكل، واتبع نظاما شديد التقشف في معيشته، وارتدى قطعة قماش بسيطة.

وكان حيثما حل يجتمع الألوف وعشرات الألوف لسماع كلامه والتبرك بمرآه.

ويكمن سر قوته وسلطانه في استقامة خلقه، وبساطة معيشته، وقدرته على الرفض لكل العادات والتقاليد الغربية التي من شأنها أن تخفي الشخصية الوطنية أو تذيبها أو تجعلها على الأقل مضافة وتابعة.

فكان لا يأكل من الطعام إلا الأرز والخضر والفواكه، ولا يتناول شيئا من الحلويات والبهارات، وكان لا يلبس حذاء، ولا يسافر إلا في الدرجة الثالثة، وكان كثير الاختلاط بالفقراء وقلما يحفل بالأغنياء.

كافح الزعيم الهندي بكل تفان.

وكان يحارب أعداء ثلاثة في وقت واحد : (الاستعمار البريطاني، الفقر، وتحرير المنبوذين) ولاقى في هذه المواجهة عنتا كبيرا يوهي العزائم، ويفت الصخور، فاضطهد واعتقل ولكن كل ذلك لم ينل من إرادته وعزيمته، ولم يزده إلا إصرارا على المضي في الطريق الشائك الذي اختاره لنفسه.

وكان يسر بالشدائد التي يلاقيها في سبيل الحق. لأنه يعلم أن لا نجاح في الحياة إلا بمغالبة المحن، ومصارعة الشدائد والأهوال.

من أقواله المأثورة السائرة (ينبغي أن نوسع أبواب السجون لكي تستقبلنا أفواجا، فطريق السجن والاضطهاد هو طريق الحرية والنصر، فينبغي أن ندخل السجون فرحين كما تدخل العروس غرفة الزفاف).

وقدم إلى المحكمة وقال القاضي:

«يستحيل علي كقاض أن أتجاهل أن طرازك يختلف كل الاختلاف عن أي رجل وقف أمامي، ولكني لا أستطيع إلا أن أقضي عليك بالسجن ست سنوات ولكن إذا رأت الحكومة تخفيف هذا الحكم وهذا من حقها فلن يكون هناك على الأرض من هو أسعد مني بذلك».

ولا غرو أن يكون هذا الزعيم في هذا المستوى من القدر والمكانة، وأن يتسلح بهذه الروح القوية العالية التي لا تعرف الضعف والفتور، وهو الذي بنى فلسفة حياته على قهر النفس ومجاهدتها.

فمن غلب نفسه غلب عدوه وانتصر عليه مهما كانت قوته وصلابته.

وفي هذا يقول:

«إن قهر الشهوات الكامنة في النفس أشق بكثير من قهر العالم أجمع بحد السيف، وقد أحسست بأثر هذه الشهوات التي ترقد في كوامن النفس وتختفي في أعماقها، فكان إحساسي بذلك يشعرني بالذلة والهوان وإن لم يشعرني بالهزيمة.

ويضيف قائلا: «ومع أن تجاربي كانت تشد من أزري وتبعث في نفسي سرورا عظيما، إلا أني أعلم علم اليقين أن الطريق أمامي لا يزال طويلا وصعبا، وأن علي أن أنقص من قدر نفسي وأن أتضاءل حتى أكون صفرا،

فإنه لا سبيل إلى خلاص المرء إلا إذا اتخذ مكانه طائعا مختارا في نهاية الصف بين زملائه من بني البشرية.

لك أن المحبة والتعفف عن العنف والكراهية هما أعلى مراتب التواضع»[1].

وظل الزعيم العظيم في مقاومته وكفاحه المرير لا يعرف الراحة إلى أن تصدى له شاب هندوسي وهو في الطريق إلى الصلاة فأطلق عليه ثلاث رصاصات قاتلةج وذلك في يوم 30 من شهر يناير سنة 1948.

ولم ينطق بعدها إلا بهذه الكلمة : «ياإلهي».

وبعد فهل عرفت من هو هذا الزعيم الذي رفض الراحة والرخاء والتمتع بلذائذ الحياة ومشتهياتها وانقطع لمقاومة النفس ومحاربة الظلم والاستبداد...؟ ورفض العنف والشدة وناشد البشرية أن تسعى لتقوية الروابط بينها حتى تعيش في محبة ووئام وسلام...؟ ورفض أن يعيش لنفسه لأن ذلك أمر ميسور على كل أحد فعاش لغيره إلى آخر لحظة من حياته؟...

إنه محرر الهند الأول (غاندي) الذي أطلق علية شاعرها الكبير لقب «المهاتما» أي «الروح السامية».

---

(١) العربي العدد 134، يناير 1970م.

«... يجب علينا أن نقبل الخير حيثما وجد، فعلينا أن نأخذ ونستفيد من كل ما هو نافع في المدنية الغربية، ولكن لا يجوز لنا أن نقلد الغرب تقليدا أعمى...»

يجدر بالشرقيين عامة أن يفاخروا به ويحيوا ذكراه اعترافا له وتقديرا لعظمته، وتذكيرا بفضله على الأدب والفلسفة والثقافة...

إنه شاعر كبير، وفيلسوف عظيم، بعيد النظر، عميق الفكر، بديع الخيال، برهن على وفرة الأدب في خزائن الشرق، وضرب للغرب أروع المثل على رقي مدارك الشرقيين وسعة أخيلتهم، وأقام الدليل ساطعا على أن الشرق مهد العاطفة وأصل التمدين والعمران، بما ترجم إلى الانجليزية من القصص الهندية الخالدة بأسلوب متين محكم يفيض عاطفة، ويتدفق إحساسا وشعورا.

برع في الموسيقى كما برع في الشعر، وكان موسيقيا في كل ما يكتب من نثر ونظم بل كاد يكون كلامه العادي موسيقيا.

ولقد منحه مجمع (ستوكهولم) العلمي جائزة نوبل في الآداب في شهر نوفمبر سنة 1913م. وشهد أن شعره يشمل جميع مطامح النفس، وحضر مؤتمر الأديان بباريس سنة 1913. وكان موضع التقدير والتبجيل، من أعلام الفكر ورجال الأدب فبادلهم الآراء والنظريات العلمية والثقافية. وألقى محاضرة قيمة في الشؤون والآداب الهندية، استمع إليها الآلاف من الأمريكيين المعجبين به وبأدبه وفلسفته.

ولقد تنوعت تآليفه كما تنوعت ثقافته، وكلها تتسم بفلسفة عميقة، وخيال واسع، وعاطفة صادقة، وشعور فياض، ووجدان يقظ. فإذا فاخرت انجلترا بشكسبير، وفرنسا بهيجو، وألمانيا بجوت، وإيطاليا

بدانتي، فللهند أن تفاخر بهذا الشاعر العظيم، والفيلسوف الكبير، الذي يشرفها انتسابه إليها.

وأهم الأهداف التي كان يدعو إليها ويسعى جهد طاقته في سبيل تحقيقها هو الحب العام، فطالما دعا إليه ونادى الإنسانية أن تجعله نصب عينيها، وأهاب بها أن توثق روابط الحب حتى يعيش العالم كله في هناءة وسعادة.

وكان يرى أن الحياة فناء في فناء ويقول: إذا كانت الأمهات تلد والقبور تبتلع، فلماذا لا نعيش تلك الفترة القصيرة في حب وهناء؟

«وطالما سمع أنين الإنسانية المعذبة يرن في ظلمات هذه الدار الفانية ورأى فيض الدماء يسيل فيعم الوجود تحت عنوان الرحمة والحرية السلام!!»[1].

فكان يتألم لذلك ويتحسر، ويعلن في إصرار أن الإنسانية لم تخلق لهذا، ويرفض أن يكون إنسانا هذا الذي يعيش لنفسه فقط ولا يبالي بغيره، ولا يعير له التفاتا.

أما اعتقاده في وجود حياة أخرى أبدية بعد هذه الحياة فأمرٌ واضح في فلسفته، يبرهن عليه بقوله :

«يئن الطفل إذا ما نزعت أمه ثديها الأيمن من فمه مع أنها لا تلبث أن تناوله الأيسر الذي يجد فيه عزاءه وسلوانه».

وفي هذا القول البسيط يشبه الحياتين بثديي الأم وفترة الموت بنزع الثدي الأيمن لإعطاء الأيسر.

---

(1) انظر الهلال، ج5، ص31، فبراير 1923.

ويناجي ربه في ساعة الانقطاع والتجرد، وفي ساعة الصفاء النفسي والسمو الروحي فيقول :

«ألا فأقبل يا إلهي توبة أقدمها الساعة بقلب جريح ملهوف، وامحِ من أم كتابي أيام اليتم التي قضيتها من غير تأمل في ذاتك العلوية، وأمدد ذلك الأجل القصير الذي تذوب فيه النفس الحائرة حتى ترتمي في حضن رحمتك الواسع، وألق يا إلهي عليه نورك الساطع المقدس».

«آه لقد ضللت الطريق في متابعة تلك الأصوات البعيدة التي تقودني إلى مكان سحيق لا نهاية له، دعني يا إلهي أجلس في هذا الهدوء الشامل لأستمع برفق إلى كلماتك اللاهجائية التي تتعالى في صمتي وسكوني، لا تتركني يا إلهي في ريبة وسط ظلمات تلك الأسرار الخفية، التي لا أستطيع الوصول إلى سويدائها بل ألق عليها من مشكاتك المقدسة لهيبا يطهرها ويزكيها ويجعلها هديا ورحمة».

وألقى خطابا ودَّع به طلبة المدارس في مقاطعة البنجاب بعد ما رأس مؤتمرهم قال فيه :

«يجب علينا أن نقبل الخير حيثما وجد، فعلينا أن نأخذ ونستفيد من كل ماهو نافع في المدنية الغربية، ولكن لا يجوز لنا بحال أن نقلد الغرب تقليدا أعمى. إن من العار علينا أن لا نرى أنفسنا متساوية مع الغربيين فنخضع لهم، ونراهم فوقنا في كل شيء، وأقول لكم إن الشرق مخدوع، ليس الغرب من العقل والكياسة كما نتوهمه نحن، لقد اجتمعت بأعظم مفكري الغرب فلم أر فيهم ما يرجحهم على المفكرين الشرقيين. إن

أصل بلائنا هو أننا قد نسينا أنفسنا وعزتنا وتاريخنا، ولولا ذلك لما وقعنا فريسة باردة لغيرنا»[1].

وأقامت جمعية الشعراء في نيويورك مأدبة عشاء على شرف هذا الشاعر الشرقي الكبير حضرها أكثر من مائتين وخمسين شاعرا وشاعرة.

فبعد تناول الطعام، وقف رئيس النادي وتكلم عن الرابطة الشعرية التي تربط جميع الأجناس والمذاهب برباط الإخاء والأدب، ثم تلاه فحول من الشعراء الكبار فجالوا جولات هزت أعماق النفوس.

وأخيرا وقف الشاعر الأمريكي الكبير الشيخ (مورغان) وقال:

«مهما اختلف الشرق عن الغرب فإن هناك مكانا يلتقيان فيه.

إن روح الغرب هي روح العمل والإقدام والفتوح، وعلى هذه الروح بنيت مدينتنا الحديثة، أما روح الشرق فروح السكون والتأمل والنظر إلى ما وراء المادة. وعندي أن الغرب في حاجة إلى شيء من روح الشرق، كما أن الشرق في حاجة إلى شيء من روح الغرب، فالمدنية لن تبلغ كمالها إلا بامتزاج الروحين، على أن بيننا الآن شاعرا جمع بنفسه بين هاتين الروحين، وقرن في حياته هذين المبدأين، فإذا قدمته إليكم فإني أقدم شخصا كريما نكرمه نحن في الغرب كما يكرمه أيضا أهل الشرق»[2].

فقام الشاعر الكبير إلى المنصة بثيابه الشرقية وقد تدلت لحيته البيضاء على صدره فزادته وقارا وجلالا وقال بعد توطئة وجيزة :

---

(1) الشهاب، ج1، م11، أبريل 1935.

(2) الهلال، ج 7، ص 29. أبريل 1921 م.

«أنتم أيها السادة -أهل الغرب- رجال القوة والعلم و لديكم الأموال وفي أيديكم العدد، وقد سخرتم الطبيعة واستخدمتموها لبناء مدينتكم الحديثة، ونحن أهل الشرق ضعفاء، ضعفاء في المال والعلم، ضعفاء في الصناعة والحرب، وقد حاولتم أن تفتحوا لنا أبواب العلم الطبيعي، وتنيروا لنا سبل الحياة الحديثة، ولذا فإني بالنيابة عن أهل الشرق أشكر لكم ما لكم علينا من الجميل.

ولكن مهلا إخواني! إن قوتكم قد حملتكم على الاستعداد بأهل الشرق، نظرتم إلينا نظرا خارجيا فلم تروا فينا غير الضعف والمسكنة فاحتقرتم مالنا، وازدريتم حضارتنا. هو ذا الغرب القوي لا يزال قابضا على عنق الشرق الضعيف يحرث عليه وينتفع به، فأما آن لكم أن ترمقونا بنظرة احترام واحدة؟ أم تبقى المدنية الحديثة تمثل بنا دور المتحكم القاهر! نعم عندكم كل شيء: عندكم القوة، والمال، والعلم، وأسباب الحرب. فيا ليت شعري أليس في مدينتكم غير ذلك؟ إننا إلى الآن لم نتعلم منكم غير مبدأ واحد: وهو أن الإنسان لن ينال حريته وحقوقه إلا بالسلاح والدم!!

أفهذه نهاية تعاليمكم؟

أجل نحن ضعفاء، وأنتم أقوياء، ولكن تعالوا إلى بلادنا وانظروا إذا كان فيها شيء يستحق الكرامة. تعالوا. لا لتفتحوا المناجم، ولا لتمدوا السكك، أو تنالوا الامتيازات، بل لتروا روح الشرق الحقيقية، ولتسمعوا ضربات قلبه النابض، ولتطلعوا على أسرار مدنيته الروحانية، وحينئذ ترون أن لدينا شيئا نفاخر أن نقدمه لكم.

وأضاف الشاعر الفيلسوف يقول:

أنتم تقدمون لنا أسباب الحياة الجديدة، ونحن نقدم لكم مبادئ الروح الأزلية!!

بالله انظروا وافتكروا ... ألا يستطيع الشرق أن يقدم لكم غير مناجمه وحقوله ورقاب أبنائه!!

إلى متى ينظر الغرب نظرة الاحتقار والأنانية؟

إلى متى يعمي الجشع أبناءه عن رؤية الحقائق الروحية؟

لا تصدقوا عنا كل ما تسمعونه من أهل الاستعمار وبعض دعاة التبشير! فإن هؤلاء يخدعونكم، ويموهون عليكم، ويصورون لكم الشرقي بصورة تستوجب احتقاركم، بل تعالوا أنتم، أنتم الأحرار وادرسوا حياة الشرق. تعالوا بروح الحرية التي بنيتم عليها حضارتكم الجديدة فتروا حينئذ كما نرى نحن الآن أن الشرقي أهل بالحرية والحياة القومية، وأن في روحه ومبادئه ما هو أسمى من الحياة المادية»[1].

- وهكذا رفض الشاعر الهندي العظيم كل حياة تقوم على الفردية والأنانية والاستغلال.

وكل حياة لا يكون قوامها الحب العام، تعد عنده خرابا وجحيما وضياعا.

- ورفض أن تكون الحياة هي هذه المدة القصيرة التي يقضيها الإنسان في هذه الأرض.

---

(1) نفس المصدر.

فإذا انتهت، انتهى كل شيء فلا حساب ولا جزاء، ولا بعث ولا نشور!!

- ورفض من عمره أيام اليتم التي قضاها من غير تأمل ونظر في خالق هذا الكون ومدبره ومسيره، فتلك أيام لا تعد من العمر، لأنها ضائعة بلا جدوى ولا مردود.

- ورفض التقليد الأعمى والخضوع للغربيين.

فليس هناك ما يرجحهم على الشرقيين ويجعلهم مثالا يحتذى.

فالبلاء كل البلاء في تقليدهم ونسيان أمجاد الشرقيين وتاريخهم.

ورفض المجاملة والمواربة وهو يخطب في حفلة تكريم أقيمت على شرفه بنيويورك أمام جمهور غفير من الشعراء، والأدباء والمفكرين الغربيين فصدع بالحق، وأكد لهم أن قوتهم قد حملتهم على الاستبداد بأهل الشرق وتسخيره لمنفعتهم، وأن الشرقيين لم يتعلموا من الغربيين غير مبدأ واحد، وهو أن الإنسان لن ينال حريته وحقوقه إلا بالسلاح والدم!!!

إنه بطل شجاع، يرفض أن يكون ضد إيمانه، وعقيدته، أو ضد شعوره وإحساسه، أو ينطق بما لا يمليه عليه ضميره ووجدانه، والواقع الذي يعيشه، والحقيقة التي يؤمن بها.

أما من هو هذا الرافض العظيم فإنه مفخرة الهند: «رابندراناث طاغور»

«من مسارح لندن إلى مساجد الإسلام،
ومن ظلام الكفر إلى نور الإيمان».

عندما يتجرد الإنسان من الأنانية والعاطفة، ويفكر بعمق في الدين الإسلامي، ويستعرض في هدوء مبادئه وآدابه، وأصوله وتعاليمه، يجد نفسه أمام دين عظيم يفوق سائر الأديان المعروفة فوق هذه الأرض في مختلف عصور الإنسان، وأنه قد جمع كل المحاسن الروحية والمادية التي ترتقي بالفرد والمجتمع، وتضمن عزهما وكرامتهما في الحياة، فحينئذ لا يقدر أن يمنع نفسه من الإعجاب بالإسلام والاقتناع الكامل بأنه الدين الإلهي الصحيح الذي يجب التدين به، ثم لا يلبث أن يعلن إسلامه ..

فمن ذا الذي يعلم أن الإسلام دين العلم والعمل، ودين العقل والحرية، ودين السلام العالمي، ودين الأخوة والمحبة، ودين التسامح والمساواة، والمعاملة الحسنة، ودين الآداب والأخلاق والحقوق العامة، ودين الحضارة والتوازن الاقتصادي.. من ذا الذي يعلم هذا من الإسلام، ثم لايسارع إلى اعتناقه ولا يسعى في تطبيق مبادئه وتعاليمه؟

لا أحد إلا أن يكون أسير التعصب والأنانية والتحجر.

بالإضافة إلى أن الإسلام دين العلماء المفكرين لأنه منزه عن الخرافات والأوهام والأباطيل والأغراض والأعراض والتلونات التي تنجذب نحوها النفوس الصغيرة المريضة، وتنأى عنها النفوس الكبيرة والعقول الراجحة المدركة، وهو الدين الذي سينتهي إليه العالم «بعد أن يسأموا مما هم فيه من الخلاف في العقائد والتنابذ في المذاهب

والتماري في الأصول، وسيكونون عبادا لله إخوانا، دينهم الحق، ودينهم الصدق، وقبلتهم وجه مولاهم الذي لا يكيف بكيف، ولا يدرك ببصيرة.

وهذا من أبرز ما يميز الإسلام عن غيره من الأديان، فبينما الإسلام يزداد في نفسك وضوحا، وفي قلبك عمقا، وفي عينك مكانة، وعظمة وإشراقا كلما تبحرت في العلم وغصت في أعماق المعرفة. واتسعت مداركك الفكرية والعقلية، فإن الأديان الأخرى ليست كذلك فلا تكاد تتعمق في فهم المسيحية مثلا حتى تصطدم بشكوك تجعلك ترتاب.. ثم تعرض عنها ..

فكم من مفكر مسيحي بالوراثة تفتح قلبه واستضاءت بصيرته بنور العلم والمعرفة، فكان أول ما أنكر في المسيحية، عقيدة التثليث التي تقول أن المسيح ابن الرب والأب هو الرب الأكبر والروح القدس هو رب ثالث..

وهذه العقيدة تبلبل الفكر، وتحير العقل، وتلح على الإنسان أن يهرب منها ويرفضها، ليجد ـ إذا بحث ـ ضالته المنشودة في الإسلام الذي يتقبله العقل تقبلا فطريا مسلما لأنه لا تثليث فيه ولا تعقيد، وبالتالي لا حيرة ولا بلبلة، فالله تعالى واحد لا شريك له، ولا والد ولا ولد «**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُؤًا أَحَدٌ**».

وكل ما في الإسلام واضح بين، مبسط ميسور، لا يكتنفه غموض، ولا يستثير في النفس شكا أو حيرة، «**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**»، «**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**»،

**«لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ»، «أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ».**

وبين فينة وأخرى نسمع من إذاعة أو نقرأ في صحيفة خبر من هرب من ظلام الكفر إلى نور الإيمان، ورفض دينا لم يقتنع به عقله وفر إلى الإسلام الحنيف الذي تفتح له قلبه ووجد فيه ضالته من أمور الدنيا والآخرة.

وإذا تتبعت ـ قارئي الكريم ـ أخبار هؤلاء وجدت معظمهم إن لم نقل كلهم ليسوا من عامة الناس إنما هم علماء ومفكرون وباحثون وما ذلك إلا لأن الإسلام ـ كما ذكرت ـ دين عقل وفكر وحرية. ولنتابع فيمايلي قصة أحد هؤلاء الذين رفضوا الكفر واعتنقوا الإسلام بعد اقتناع وإذعان :

إنه ممثل عالمي وبطل أفلام مشهورة منها «الحصان العجيب» والفيلم الإيطالي «اتناثيو» كما مثل فيلم «انكارنينا» الذي ألف قصته تولستوي، وبالإضافة إلى ذلك فهو فنان مبدع وشاعر له مقدرة فائقة على نظم شعر رائع وتصوير مناظر فاتنة في بضع دقائق..

لقد كان هذا الممثل الكبير في زحمة حياة المسرح والسينما واللذة فلم يكن يفكر في شيء، إذ كان كل شيء في متناول يده وكان ايراده الشهري لا يقل عن مائة ألف دينار ينفقها كلها على ملذاته وفي ملاهي لندن، ولندعه يحدثنا بنفسه عن قصة إسلامه كما روتها مجلة (الاثنين) المصرية فلنرهف الآذان ولنفتح القلوب :

وجدتني أهرب من حياة اللذة لأعيش ساعة مع نفسي أفكر في حقيقة الحياة وفي الرب.. إلا أن صخب لندن كان يعيدني ثانية إلى دنياي فقررت

الهروب إلى الشرق أرض العقائد الروحية وطفت بباكستان والهند.. وانتهيت إلى «كيرالا» واتجهت إلى دير هندوكي وعشت مع البوذيين ولبست مسوح الرهبان وخلعت نعلي وجلست مثلهم القرفصاء، وحرمت على نفسي أكل اللحوم، وقرأت ودرست.. ولكن بعد ستة أشهر من حياتي في الدين قررت الهروب منه للبحث عن الله في مكان آخر.. واستبد بي الشك وقتلتني الحيرة، أين الله الذي أحس به في نفسي ويعيش في ضميري؟؟ أين هو؟

ولم يشأ الله أن يتركني لحيرتي وقلقي بل هداني إليه برؤيا عجيبة :

رأيت نفسي أركب فرسا وأتجول بها في صحراء واسعة ثم ضللت الطريق فتملكني شعور بالخوف الشديد وفجأة ظهر أمامي رجلان يقفان في خشوع يسجدان ويركعان فاتجهت إليهما، وسألتهما عن أمرهما فقالا لي إنهما في انتظار قائدهما ... فانتظرت معهما إلى أن وصل القائد وكان محمدا رسول الله فأخذني بين يديه واحتضنني فأحسست وكأن ينبوعا من النور قد تدفق إلى قلبي واستيقظت، وقد تملكني شعور دافق بالإيمان.. واتجهت على الفور إلى «مدارس» والتقيت بالشيخ أحمد الشرقاوي مبعوث الأزهر للهند وقصصت عليه الرؤيا وطلبت منه أن يعلمني قواعد الإسلام، وحفظت القواعد الخمس، وآمن عقلي مع قلبي، وعشت أياما لا أنساها : فقد كنت كالطفل الوليد يتحرك بأمر من روحه ووجدانه وكنت أهرب من كل ألوان الجدل العقلي والخلاف المذهبي.. كنت أحب أن أستمع إلى نداء السماء وهو يتردد في جنبات صدري.. وأهفو بنفسي إلى رؤية القائد العجيب الذي اعتنقني في الرؤيا .. وشعرت

أن علي رسالة نحو أمي وزوجتي وإخوتي فلم لا أجرب حظي معهم وطرت على الفور إلى أوروبا بعد غيبة ستة أشهر وألقيت بالبشرى لأمي فترددت قليلا ثم آمنت بمثل ما آمنت به.. أما زوجتي فلم تكن تكترث بالجانب الديني أصلا، ولذلك أعرضت عني وتركتها وشأنها، أما إخوتي فقد قاطعوني واعتبروني متمردا.. وضاقت بي لندن.. وضقت بها، فقد كان كل ركن فيها يذكرني بأيام شبابي وسهراتي ومغامراتي فقررت الهروب من جديد.. وتركت لأمي كل ما أملكه وأخذت أول طائرة إلى الهند للمرة الثانية، ولكن ليس إلى المعاهد البوذية بل إلى حيث يعكف الشيخ الشرقاوي في «مدارس» .. وها أنا ذا بعد مدة أعيش مع إخوة أحبة في مصر، ويحتضنني المجلس الإسلامي ويشملني شيخ الأزهر بعطفه وحنانه وقرر أن يعطيني درسا في اللغة العربية والدين، كما رحب بي مدير الجامعة الأزهرية الشيخ الباقوري».

هكذا- عزيزي القارئ- رفض الممثل العالمي، والشاعر البريطاني حياة الخوف والقلق.والشك وفر إلى حياة الأمن والطمأنينة واليقين وهرب من لندن، المدينة الجميلة التي وجد فيها كل رغباته ولذاته ومشتهياته، ولكن شيئا واحدا لم يجده، ولا يستقيم أمره، ويسعد عيشه، ويهنأ باله إلا إذا وجده، ذلك هو الله... الله الذي وجده في نفسه وأحس به في ضميره..

لقد رفض كل شيء في سبيل اللّه، رفض لندن، ورفض المتعة العريضة، ورفض الحياة المترفة التي لا حد لها، ورفض أقاربه وأصدقاءه وزملاءه في العمل والوظيف، ورفض بيته الأنيق الفخم في قلب لندن

الجميلة، وترك أمه الحنون التي رأى في حجرها أول شعاع الحياة... ترك كل ذلك.. ورفضه في سبيل العقيدة الصحيحة والدين الحق..

رأى الناس جميعا في لندن المدينة الواسعة الصاخبة، ينتجون كثيرا، ويكسبون كثيرا، ويتنعمون بمختلف المتع واللّذات، ويزنون الحياة بميزان الطعام والشراب والمتع الجسمية المختلفة من غير أن يكون لهم أدنى تفكير في الجانب الروحي الذي يعلو بهم على العيش التافه، والمادة الحقيرة، والحطام الفاني - رأى كل ذلك فرفض لندن وجمالها ومتعها، وخرج منها وذهب يبحث عن الحقيقة.. عن الله تعالى..

ولقد كان في رفضه وفي بحثه عن الله قوي العزيمة، صادق النية، صافي القلب، فيسر الله لقاءه وهداه إلى الجادة القويمة فكان من الفائزين..

بقي أن تعلم - عزيزي القارئ - أن هذا الرجل العظيم هو «روبرت آرثر ولسلي» الذي سمى نفسه «عبد الرشيد الأنصاري».

«ونال جائزة (جيكر) مكافأة له على أبحاثه الكيمياوية المعتبرة»

طلبت صحيفة (الماتان) الباريسية في أواخر القرن التاسع عشر أن يوافوها برأيهم عن أعظم الرجال وأفضلهم، فكان السواد الأعظم من المجيبين مجمعين على هذا العالم الجليل الذي نتلاقى معه في هذا الحديث، والذي خدم البشرية بفكره وقلمه واكتشافاته..

وقد كانت الأوساط المختلفة لا سيما في فرنسا تظن أو تتوقع أن الذي سيحظى بالأكثرية الساحقة في الاستفتاء هو نابليون، لأنه الشخصية العظيمة التي ذاعت شهرتها في أنحاء العالم، ولكن الذي حظي بالمكانة الفذة في القلوب لم يكن (نابليون) رجل الحرب الذي كان من ثمرات جهوده إبادة الأملاك، وقتل مئات الآلاف من شباب فرنسا الأقوياء، بل كان رجل السلم والعلم والفكر.

فدل الاستفتاء على أن الفرنسي وإن كان طائش اللسان أحيانا فهو رزين العقل، بعيد النظر، يميز بين البار والفاجر، ويفرق بين المحسن والمسيء من رجاله.

ولد بمدينة «دول» بفرنسا سنة 1822، وتلقى مبادئ العلوم بالأقاليم، ثم ذهب إلى باريس لإتمام الدراسة.

وفي سنة 1840 عين مدرسا بمدرسة (بيزانسون)، وبعد ثلاث سنوات انتخب مدرسا بمدرسة «النورمال» وهي من أكبر مدارس فرنسا لتخريج المعلمين.

وأبرز ما يستلفت نظر الدارس لحياة هذا الرجل هو الجد في طلب العلم والتفاني فيه إلى درجة أنه رفض كل ما عداه مما يلهيه عن دراسته أو يعوقه عنها، أما الوظائف العلمية التي كان يمارسها فإن همته كانت أسمى منها وأكبر فلم تكن تشغله عن أهدافه الكريمة الهامة، وغاياته النبيلة ..

وفي سنة 1846 نال درجة «اجريجية» في العلوم الطبيعية وهي درجة لا يحصل عليها إلا أفراد من النوابغ.

وفي سنة 1847 أحرز على دكتوراه في العلوم. وفي هذا الوقت عين مدرسا لعلم الطبيعة في مدرسة «ديجون».

وهكذا ظل يرتقي في الوظائف العلمية حتى سنة 1873 حيث انتخب عضوا في مجمع العلماء الفرنسي وأكاديمية الطب، وانكب على الدرس والبحث حتى ذاع صيته في مختلف أنحاء العالم وخاصة في الأوساط العلمية وذلك بأبحاثه القيمة في الكيمياء وتجاربه في التخمر ومسألة التولد الذاتي..

وسطع نجمه في سماء المعرفة حتى صار مثار الإعجاب ومضرب المثل والقدوة المثالية لطلاب العلم ..

فهو أول من قال بأن الخميرة تنشأ من أحياء تنمو وتموت وتتولد، وفتح بذلك الباب للقول بأن أغلب الأمراض ينشأ من ميكروبات ترى بالميكروسكوب وقد عالج الكلب وعالج أمراض الكروم في فرنسا وكادت في وقته أن تنقرض، وعالج الغنم من الجمرة وأصيبت دودة القز بآفة ميكروبية كادت تفنيها فعالجها أيضا ونجح..

وأعجب العلماء بمباحثه القيمة ذات الأثر الفعال والنفع العام حتى أن الجمعية الملكية الإنجليزية أهدته وسام (رمفور 5) الكبير سنة 1856..

ونال سنة 1861م، جائزة (جيكر) مكافأة له على أبحاثه الكيمياوية المعتبرة..

والجدير بالذكر أنه عندما شبت حرب السبعين التي هزمت فيها ألمانيا فرنسا ثارت وطنية هذا العالم وتجاوزت الحد، فخرج عن طور العالم الرصين فقال في إحدى خطبه:

«سأكتب في رأس عنوان كل كتاب أؤلفه في المستقبل: الكراهية لبروسيا، الثأر، الثأر».

ولكن الزمن علمه أن خطة السيف والنار لا تتفق والتقدم البشري، فخطب بعد ذلك بمدة فقال:

«في العالم نموسان متضادان يكافح أحدهما الآخر الآن. فأحدهما ناموس الدم والموت الذي يسير وراء وسائل الخراب فيضطر الأمم على الدوام إلى التأهب للحرب. والآخر ناموس السلام والعمل والصحة وهو أبدا يسير وراء الوسائل التي تخلص الإنسان من الكوارث التي تنزل به. والله وحده يعرف أي هاذين الناموسين سيتغلب على الآخر»[1].

ولكن هذا الشك لم يدم طويلا برأس هذا العالم المفكر فإنه قال بعد ذلك في عيده الخمسيني إنه يؤمن إيمانا صادقا «بأن العلم والسلام

---

(1) الهلال، فبراير 1923، السنة 31.

سيفوزان على الجهل والحرب وأن الأمم لن تتخذ على التخريب والتدمير، ولكن للبناء والعمار.. والمستقبل لتلك الأمم التي جاهدت، أكثر من غيرها في تخفيف آلام البشر»[1].

وهكذا كان هذا العالم العبقري آية للجد والاجتهاد طوال حياته، ورفض الراحة لأنه علم أن هذا الطريق ـ طريق الجد والعمل ـ وإن كان صعبا محفوفا بالمتاعب والمكاره والمشاق هو الذي ينتهي به إلى العز والمجد وإلى الحياة الكريمة التي يرجوها لنفسه ولوطنه..

وهكذا كان هذا المكتشف النابغة.. وقف على حقيقة كبيرة، ليت قادة العالم يفقهونها، وهي أن ناموس السلام والعلم والصحة هو الذي يجب أن ينتصر في سباقه مع ناموس الدم والموت والخراب..

وقد رفض العالم العبقري أن يعمل لناموس الخراب والموت والفناء كما يعمل غيره من المخترعين لوسائل الفناء والدمار، فوقف نفسه على خدمة ناموس العلم والصحة والحياة فكان بحق من عشاق الحياة وبناتها، ومحبي البشرية وخدمتها فطوبى له وللسائرين على نهجه أما من هو فإنه «لويس باستور» الفرنسي.

---

(1) الهلال، فبراير 1923، السنة 31.

# مصادر الكتاب


| | |
|---|---|
| وفيات الأعيان | لابن خلكان |
| الكامل | لابن الأثير |
| البداية والنهاية | لابن كثير |
| الأغاني | لأبي الفرج الأصفهاني |
| العقد الفريد | لابن عبد ربه |
| دائرة معارف | لفريد وجدي |
| الاعلام | للزركلي |
| صفة الصفوة | لابن الجوزي |
| المستطرف في كل فن مستظرف | للأبشيهي |
| الاستيعاب في معرفة الأصحاب | لابن عبد البر |
| شرح نهج البلاغة | لابن أبي الحديد |
| عصر سلاطين المماليك | لمحمد رزق سليم |
| الوافي بالوفيات | للصفدي |
| الإصابة في تمييز الصحابة | لابن حجر العسقلاني |
| بغية الملتمس | لابن عميرة |
| تاريخ الخلفاء | للسيوطي |
| تاريخ الطبري | |
| حلية الأولياء | لأبي نعيم الأصفهاني |
| الحيوان | للجاحظ |
| أيام العرب | لمحمد بن الفضل |
| معجم البلدان | للحموي |
| مجلة «منبر الإسلام» | أعداد مختلفة |
| مجلة «الهلال» | أعداد مختلفة |
| مجلة «الإسلام» | أعداد مختلفة |
| الشهاب | |

# فهـــرس

أنجز طبعه على مطابع

ديوان المطبوعات الجامعية

الساحة المركزية - بن عكنون

الـجـزائـر